حقيقة الإنسان

بين

القرآن وتصور العلوم

تأليف

د. أبو اليزيد العجمي



مباحث الكتاب

المقدمة

لم يحظ مخلوق من مخلوقات الله بعناية مثلما حظى الانسان فقد أرسل الله الرسل اليه ، وانزلت الكتب تحمل هدى السماء الى الأرض من أجل اصلاح هذا الانسان ، وبصلاحه يصلح كثير من مخلوقات الله في هذا الكون .

ولا عجب فالانسان هو الكائن الذى كرمه الله بالعقل ليعى ويتفهم الأمور ويستمتع بالحياة وفق منهج الله الذى حملته تعاليم الله الى الانسان . وقد أنطلق الانسان بنشاط عقله انطلاقات تركز معظمها حول ذاته هو ، ووجد من جراء هذا ما يسمى بالعلوم الانسانية ، وبالعلوم الخادمة للانسان ، وكل هذا لا يضير فيه ولا غبار عليه ، لو أن هذا الانسان أدى للنعم التى أحيط بها حق المنعم فيها ، فتفهم دوره ، ولماذا خلق بهذه الصورة ، وكيف سخرت له كل الكائنات حوله ، لينطلق من هذه الفهوم وما تستلزمه الى ممارسة حقيقية لوظيفته في هذا الوجود . وهنا تصبح الأمور على وجهها الصحيح فيسعد هو وتسعد به الحياة .

لكن واقع الانسان يختلف عن هذا التصور فقد فهم نصف الحقيقة وتغابي عن نصفها الآخر ، فهم أنه مخلوق ذللت له الصعاب ، وهيئت له الحياة وبدلاً من أن يفهم بعقله أنه مسئول عن هذا التكريم ، فهم أن التكريم ينصب على ذاته ، فراح يعصى الله في ملكه ، وبالطاقات التى منحها الله له ، الأمر الذى استجلب عتاب الله له في القرآن على معاصيه هذه ، مذكراً اياه بخلقه من عدم ، وحفظه في بطن أمه ، وتعهده بالعناية في كل زمان ومكان .

ولعل الحيرة التي يعيشها الانسان المعاصر على هذه الأرض ، وقد تقدمت العلوم وارتقت المعارف حول الانسان وقهره للطبيعة ، وقد امتلك من وسائل العيش المادى ما يكفل الحياة السعيدة بمقياس الماديين ، أقول لعل الحيرة التي يعيشها الانسان وهو بحالته هذه سببها أنه قلب الأمر ، وغير وجه القضية . فاغتر بانسانيته كما زعمها وطغى بعقله حتى عبد هواه ، وتاه في ظلمات الانتصار على الطبيعة ، ووهم أنه بذلك الانسان الذى أراده الله للأمانة وللخلافة ، والعبادة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا الوهم الذى عاش فيه زمناً قطعت حجبه حيرة وقلق وتبرم بالحياة . فمن هداه الله الى الاسلام وجد ضالته ، وعرف طريقه ، وبدأ مسئوليته عن هذه الحياة فكان شقاؤه هذا سعادة ، وعرقه هذا بلسماً . وأما الذين على قلوبهم رين ، وعلى أعينهم غشاوة فلا يزالون في الحيرة يتقلبون ، يعانون من الضنك الذى يلزم من يعرض عن ذكر الله كما أخبر سبحانه في كتابه الكريم . (١)

واذا كان واجب الانسان ـ وبصفة خاصة المسلم ـ أن يحمل الأمانة التي هى دين الله الى الناس والدين عند الله الاسلام ـ فان علينا نحن المسلمين أن نفهم أولاً دورنا في زيادة الحياة وأن نحمل أمانتنا ومسئوليتنا فننشل هؤلاء الحيارى من ضلالهم وساعتها يحق لنا أن نقول نحن الأمة التي هى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

ولن يتحقق هذا الأمل ولن تقل ويلات الحيرة وآثار القلق في هذا العالم الا اذا أدركنا حقيقة هذا الانسان بين مسئوليته التي تنشر نور الله في الأرض وتحمله جيلاً بعد جيل وبين تكريمه الذى أعجب به قوم

---

(١) سورة طه ـ ١٢٤ ـ ١٢٧

ووقفوا عنده ، وهو في الحقيقة توطئة واعداد لدور هام يقوم به الانسان .

ولا نزعم أنا نبتكر جديداً في تقديم هذه الحقيقة وفق تصور اسلامى ، لكنا نزعم أنا نغير نقطة الضغط ، فنضغط حيث يجب التركيز على حقيقة الانسان المكلف المسئول وفي تناول القضية بهذا الشكل تركيز على تحقيق انسانية الانسان لنفهم سر تكريمه وميزته التى تتحدث عنها كتب السماء وشهدها واقع الأرض .

وقد نهجنا في معالجة هذه القضية نهجاً غلب على ظننا أنه تسلسل وتدرج طبيعى لنقاط البحث ، فقد خصصنا جزءاً لبيان موقف العلوم التى تهتم بالانسان ، من طبيعة ومحاولة فهم الانسان ، وبالطبع لم يكن في مقدورنا أن نقدم تصورات كل العلوم ولا تصورات البعض بالتفصيل لأن هذا يحتاج الى مجلدات ، ولكنا آثرنا عنصراً لاختيار المسوغ ، فاعتبرنا علمى النفس والأخلاق من أهم ما يهتم بقضيتنا في الجانب النظرى ولمسنا تصور العلوم البيلوجية والفسيلوجية للانسان ، وجاءت النماذج التى اخترناها مركزة على ما يمس نقطة البحث حتى نرى ماذا حقق العقل الانساني لنفسه حين حاول أن يتصورها ؟ وبعد أن قدمنا ما يشبه الاعتراف باخفاق هذه العلوم ـ صراحة في بعضها وضمناً في بعضها ـ وان كنا بهذا لا نقلل من شأنها كمحاولات ، ولكننا نضعها موضعها من مصادر المعرفة عن حقيقة الانسان ـ أقول بعد هذا وجدتنى في نقلة طبيعية ومنهجية في آن معاً انتقل الى الاسلام آخذ منه ، بياناً شافياً لطبيعة هذا المخلوق (الانسان) وحقيقته ودوره ، وبينت كيف أن الاسلام ينظر الى الانسان ككل متكامل ، له مطالبه ، ليستطيع أداء مهمته ، فيشرع له في كل جانب من الجوانب ما يشبع حاجاته وينهى عوزه . ولان الشائع في الحديث عن الانسان

تعداد مظاهر تكريمه - ونحن لا ننكرها ولكنا نوجهها - تحدثت عن الانسان المخلوق المكرم المنعم ، ثم قادني هذا الى سؤال مؤداه لماذا كل هذا التكريم وهو واحد من مخلوقات الله العديدة ؟ وهنا كانت النقلة الطبيعية الى الحديث عن الانسان المسئول الذى تعرفه الشريعة بأنه الكائن المكلف ، فتحدثت عن المسئولية التى نيطت بالانسان من خلال آيات حددت ذلك ، ووصلت منها جميعها الى أن خلق الانسان غايته أنه مسئول ، ثم ربطت بين هذه المسئولية التى هى حقيقة الانسان وبين التكريم الذى أشير اليه من قبل ، فبينت الصلة بينهما وأظهرت أن الانسان مسئول أولاً ، ثم اعانه الله على هذه المسئولية بالتكريم والتميز ، ولما كانت حقيقة الانسان أنه مسئول أشرت الى كيفية تحقيقه لانسانيته ، وتحمله لمسئوليته ، كما أشرت الى أن الأمر يختلف اذا انطلقنا من كون الانسان مسئولاً ، اذا انطلقنا من كونه مكرماً ومميزاً .

ثم جاءت تتمة وبيان لشبهات حسبتها كاشفة عن بعض الحقائق ، ومزيلة لبعض الضباب حول الفكرة . وكنت مضطراً - حسب خطة البحث - في كثير من الأحيان الى الايجاز والتركيز خوفاً من تفرع البحث الى بحوث تستقل عنه ، وايماناً بأن الفكرة يجب أن تؤدى بأقصر لفظ وأوجزه مادام واضحاً ، حرصاً على وقت المسلمين من جهة ، ومنعاً لتذويب الأفكار بين الألفاظ وترادفها من جهة . هذه هى نظرتنا الى الأمر ، وهى مجرد نظر يجوز عليه ما يجوز على كل نظر البشر وأعمالهم عقولهم ، وحسبنا أنا بها نريد خيراً ، ونبتغى من الله ثواباً أنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

الطبيعة البشرية في علوم الإنسان وبيانها في الإسلام



حول تعريفات العلوم للانسان

لقد كان الانسان موضع دراسة كثير من العلوم بعضها يتسم بالجانب النظرى أعنى دراسة الانسان من خلال نظريات هذا العلم أو ذاك . ووجد من مجموع هذه العلوم ما يسمى بالدراسات الانسانية . كما أن هناك علوماً تبحث في الانسان على محل الواقع العلمى ، وبمنظور لا يصدق الا التجربة . وما تثبته نتائج الفحص المعملى ، وفي مجموعة العلوم النظرية نلتقي بالدراسات الاجتماعية ، والدراسات التاريخية والدراسات النفسية والجغرافيا البشرية . كما نلتقي بعلم الأخلاق بمباحثه التى تهتم بالانسان في موقفيه الفردى والجماعى . وغير هذه العلوم ما يماثلها في المنهج والمنحى . وفي المجموعة الأخرى من الدراسات التى تهتم بالانسان نجد الدراسات البيولوجية (علوم الحياة) كما نجد الدراسات الفسيولوجية (علوم وظائف الأعضاء) وما يخدمها ويخدم سابقتها من علوم كالكيمياء والفيزياء وغيرهما .

ولئن كانت العلوم ذات الاتجاه المعملى لم تشغل نفسها كثيراً بتعريف الانسان موضوع أبحاثها في كثير من مناحيها . فان أصحاب الدراسات النظرية حاولوا أن يدخلوا الى بحوثهم حول الانسان بتعريف يعطف هذا المخلوق العجيب الى مجال بحوثهم ، ولسنا ندرى هل كان هذا الشغف بتعريف الانسان مطلباً منهجياً ؟ أو كان ذلك لابراز صفة في الانسان يهم العلم أن يبرزها ؟ ويستوى بعد ذلك أن يكون هذا لصالح العلم أو لصالح الانسان ؟

تلك احتمالات واردة وليس من السهل تحديد أحدها ورفض ما سواه وذلك لتداخل الأمور بين ما هو من مصلحة علم يهتم بالانسان وبين ما هو من مصلحة الانسان موضوع هذا العلم من جهة ثم لتغير مناهج هذه العلوم آنا بعد آن من جهة أخرى .

على أية حال هذا واقع لا يمكن انكاره ، بل تمتد جذوره الى ما قبل الميلاد حيث عرف أرسطو الانسان بقوله : (أن الانسان مدني بالطبع) .. وجعله نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفه بأنه حيوان ناطق . ثم وصفه بأنه حيوان اجتماعى تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع ، فليس بين الاحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الانسان (١) .

وبمثل هذا تعرفه علوم الأخلاق بأنه الانسان الأخلاقي أو صاحب الضمير . وهو الكائن الذى يمكن أن يوصف سلوكه بالحميد أو الذميم من الصفات ، في ضوء تميزه عن غيره بالحرية والمسئولية (٢) سواء كانت مسئولية قانونية أو مسئولية خلقية . كما تعرفه الدراسات النفسية بأنه الكائن ذو المشاعر والأحاسيس الذى يختزن من الماضى صوراً للحاضر . ويرتب على المثيرات استجابات تماثلها وتتكيف معها .

والذين يرون في الانسان جانبه العقلى ميزة وارتفاعاً به فوق كل الكائنات يعرفونه بأنه كائن مفكر يدرك العلاقات بين الأشياء ويخطط للمستقبل وفي ذهنه احتمالات ومرجحات .

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٣٦٨ موسوعة العقاد ـ ٤ دار الكاتب العربي بيروت ـ ١٣٩٠ هـ .

(٢) نفس المرجع ـ ٣٦٩

وليس ببعيد من هؤلاء أولئك الذين يهتمون بالجانب الروحي في الانسان فيعرفونه بأنه الانسان المحب الملهم الذى يسعد بلذة المعنى أكثر مما تسعده لذات المادة . ولم يعدم أصحاب هذه التعريفات الطرق أو الوسائل التى يبررون بها نظراتهم للانسان مع الاعتراف بأن هذه التسويغات تختلف من اتجاه يرى أن غريزة حب البقاء تحكم سلوك الانسان ، الى آخر يفسر سلوكه من خلال الغريزة الجنسية الى ثالث يرى أن حب القوة والسيادة هو الباعث على هذا السلوك او ذاك (١) .

ومن عجب ان الانسان يصدق عليه تعريف هؤلاء وأولئك مادمنا لا نحكم بالمقياس المنطقي وهو ان يكون التعريف جامعا مانعا لا يشاركه في التحديد غيره ولا يحتاج الى سواه وما ذلك الا لان كل علم من هذه العلوم عرف ناحية موجودة في الانسان على وجه الحقيقة ، لكن الخطأ جاء الى تعريفاتهم من أنهم اعتبروا الذات الانسانية هى النفس أو العقل أو الروح أو هى جماع هذه الأشياء ، وبعبارة أخرى اعتبر كل علم الانسان هو الزاوية التى ينظر هذا العلم من خلالها . ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل والروح حين تذكر كل منها على حدة . فان الانسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح ... وحق العقل ان يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق الا بايمان والهام (٢) .

---

(١) العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٢٧٠

(٢) العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٤٩ ـ ٢ . د . مقداد يالجن علم النفس التربوى في الاسلام ـ ٢٢ دار المريخ بالرياض .

تعريف القرآن

لم يصنع القرآن - وهو الكتاب المنزل من لدن حكيم خبير - مثلما صنع أصحاب هذه العلوم دون أن ينهلوا منه ، بل عرف الانسان بخاصية دوره ومجال تميزه . فقد عرفه بأنه الكائن المكلف كما يفهم من آياته العديدة التى تخاطب العقل بكل ملكة من ملكاته وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعلقون . واذا كان للمناطقة أن يعرفوا الانسان - مقدرين مزاياه العقلية - بأنه حيوان ناطق ، أو جاز للاجتماعيين أن يعرفوه - مؤكدين على جانب علاقاته الاجتماعية - بأنه حيوان مدني بالطبع فانه يمكن تعريف الانسان من وجهو نظر الشريعة بأنه الكائن المكلف لأنه من بين سائر المخلوقات التى تعيش على وجه الأرض مناط التكليف والمسئولية كما أشار القرآن الى ذلك (١) .

وهذا التعريف (الكائن المكلف) أشرف وأصوب من جعله الحيوان الناطق ، أو من جعله الملك الهابط أو الحيوان الصاعد . لأن الكائن الناطق لا يكون شيئاً ما لم يكن أهلاً للتكليف وليس الحيوان الصاعد بمنزلة تفصل بين ما كان عليه وما آل اليه في طريقة الارتقاء ، اما الكائن المكلف شئ محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة (٢) .

وحين نقول أن القرآن عرفه بأنه الكائن المكلف أو الكائن المسئول فاننا نستنطق آيات جاءت نصاً في المسئولية في القرآن الكريم مثل « واذ

---

(١) عبد الكريم عثمان .. (دكتور) معالم الثقافة الاسلامية - ١٥٨١ الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ . ١٩٧٩ م مؤسسة الانوار الرياض

(٢) العقاد - الانسان في القرآن - ٢٣٢ .

قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة » .. الآية (١) وقوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ... » الآية (٢) . وقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (٣) وقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٤) .

وأقول أن هذه الآيات تنطق بتعريف الانسان بدوره بأنه الكائن المكلف لأن الخلافة فسرها العلماء بتمثل الدين والحفاظ عليه ونشره جيلا بعد جيل . ولأن الأمانة هى في مجموع آراء المفسرين مع شموها لكل أمانة تأتي نصاً في فروض الدين ، ولأن العبادة التى هى غاية خلق الانس والجن هى معرفة الله وطاعته . وطاعته التزام أوامره ونواهيه وهما جماع الدين ، وآية تحديد مهمة الأمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنمر أوضح من أن يشار اليها أو يعلق عليها . فهى التعبير الصريح فيما ذهبنا اليه .

اذن هذه الآيات وما يدل على معناها هو الذى جعلنا نقول أن القرآن حدد الانسان بدوره وهو المسئولية التى ستبسط ان شاء الله في موضعها من هذا البحث .

---

(١) البقرة ـ ٣٠
(٢) الاحزاب ـ ٧٢
(٣) الذاريات ـ ٥٦
(٤) آل عمران ـ ١١٠

علم النفس وطبيعة الانسان

لعل من أبرز العلوم اتصالاً بالانسان تلك الدراسات التي تسمى علم النفس ، وواضح من تسمية العلم نفسه أنه يهتم بنفس الانسان كطريق لمعرفة طبيعته وحقيقته حتى قال أحد الباحثين أن علم النفس يبحث في النفس ، ومع غموض هذه العبارة الا أنها في الحقيقة تعنى دراسة الحالات النفسية للانسان من سرور وألم وغيرها . (١) وهذا العلم من العلوم التي تنوولت بتعريفات عديدةحسب مراحل اهتمامه ومدى نجاحه فيها - كما سيجئ - فقد عرفه بعضهم بأنه (علم يهتم بدراسة الانسان بصورة مباشرة على أنها غاية في نفسها ولا يهتم بدراسة الأمور التي يكون لها أثر ثانوى أو غير مباشر في فعاليات الانسان .... ويستعين على ذلك في أحيان كثيرة بدراسة الحيوان في سبيل تفهم سلوك البشر وطرق تعلمهم ومعرفة كيفية ونوعيّة استجاباتهم للمؤثرات الخارجية والداخلية) (٢) .

وعرفته بعض الاتجاهات بأنه علم يهتم بدراسة العقل ، كما عرفته بعض الاتجاهات بأنه علم يهتم بدراسة الطبيعة البشريّة الى غير هذا من تعريفات . (٣)

وهذا العلم مر بمراحل عديدة من التطور أوجدت فيه مدارس وقيادات ، ففي عهد ديكارت (١٦٥٠ م) مثلاً بعثت نظرية افلاطون التي تعتبر العقل أو النفس وحدة روحية والجسد آلة منفذة لاغراضها ورغباتها وهى التي تسيطر على الجسم سيطرة كاملة .

---

(١) عبد العزيز القوصى (دكتور) علم النفس أسسه وتطبيقاته - ١٩ النهضة المصرية ١٩٧٨ م .

(٢) ضياء الدين ابو الحب - علم النفس التربوى - ١ - ٨ - ٩ الطبعة الثالثة ١٩٥٩ م بغداد .

(٣) السابق - ١٤ .

وفي نفس الفترة الزمنية وجد (جون لوك) واعتقد أن الطفل يولد صفحة بيضاء وأن البيئة هى التى تشكل هذا الطفل وعقله وما يمكن أن يتكون عنده من آراء .

وفي بداية القرن الثامن عشر (١٧٣٩ م) أكد هيوم هذا الكلام معترفا بأنه لا يوجد شئ حقيقي غير الاحساسات التى نكون من خلالها معارفنا وآراءنا . ولعل هذه التعريفات والأفكار التى مرت الاشارة اليها تؤكد أن اهتمام هذا العلم مع اختلاف اتجاهاته - وبصرف النظر عن موقفنا الاسلامى منها الآن - يتوجه الى معرفة الطبيعة الانسانية ويعتبر زاوية نظره هى البداية الحقيقية لهذه الدراسة . (١)

ولعلنا هنا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول أن محاولة معرفة الطبيعة الانسانية قاسم مشترك بين كل مدارس علم النفس على ما بينها من اختلافات ، فجميعها يتساءل عن عناصر تكوين هذه الطبيعة هل هى المادة أو الروح ؟ أو هما معاً ؟ ثم أيها الأساس وأيها الذى يمثل مظهرا خارجياً ؟ وتأتي الأجابات وفق المنطق الذى تنطلق منه هذه المدرسة أو تلك بناء على الفلسفة التى تتبعها .

فأصحاب الاتجاه المادى يدرسون هذه الطبيعة منطلقين من حقيقة - في زعمهم - مؤداها أن الانسان ليس الا ظاهرة مادية شديدة التعقيد ، مركبة من المواد الكيميائية المختلفة وقد نشأت بسبب تطور المواد الأولية .

وأصحاب النزعة العقلية يدرسون طبيعة الانسان على أنه ظاهرة عقلية لا جسمية وأن الوجود الجسمى ليس في حقيقة الأمر الا نتاجا

---

(١) علم النفس التربوى - ١١ ، ١٢

للعقل يشتق منه ويرتبط به . وبجوار هذين وجد من يفسر طبيعة الانسان تفسيراً ثنائياً يضمنه المادة والروح معاً . وبطبيعة الحال تترتب على هذه المنطلقات أمور تختلف من اتجاه الى آخر . فبناء على المنهج المادى تفسر طبيعة الانسان على غرار الطبيعة الحيوانية . (١) ولعل هذا كما يرى بعض الباحثين أثر من آثار عدوى نظرية داروين في النشوء والارتقاء قد أصاب الاتجاه المادى وعلى رأسهم فرويد حين تابع داروين في مقولته أن غرائز الانسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة له في سلم الصعود ، مضافاً اليها قدر من التطور . هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه وأنتجت منه الكائن البشرى على مر الأيام . وهكذا فالانسان عند فرويد وأشياعه كائن أرضى بحت لا يرتفع بمشاعره وعواطفه عن عالم الأرض الا في حالات الشذوذ (٢) .

ولسنا هنا بصدد تفسير الخطأ الذى وقع فيه « داروين » حين اعتبر الانسان امتدادا للحيوانات العليا . ولكن حسبنا أن نذكر هنا اصرار هؤلاء جميعاً على انكار الروح لا لأنها ليست حقيقة ولكن لأن اعترافهم بها يكلفهم تكاليف كثيرة ، كتلك التى كانت تفرضها عليهم الكنيسة ، ففروا منها هاربين ، وهاهم أولاء يهربون من الاعتراف بالروح لنفس السبب القديم ، فضلاً عن أن هذا يوافق طبيعتهم الوثنية التى ورثوها من روما ولا تزال تعمل عملها فيهم . وهم بعيدون عن الصواب لأنه اذ أجاز أن ينظر الى الانسان نظرة حيوانية في علم الحياة فلا يجوز هذا في علم النفس لخطورة النتائج في هذا الصدد . (٣) .

---

(١) د . مقداد يالجن وآخر - علم النفس التربوى في الاسلام - ٢٤

(٢) محمد قطب - الانسان بين المادية والاسلام - ١٩ ، ٢٤ الطبعة الرابعة

(٣) السابق - ٢٧

وقد أعجب الشيوعيون بنظرات (فرويد) في علم النفس وتركيزه على الجوانب المادية الأرضية ، وهم - أعنى الشيوعيين - في اعجابهم هذا يبحثون عما يخدم فكرتهم في تحطيم المقدسات وتشويه صورتها . فهم في الحقيقة لا يتعاطفون مع علم النفس لأنه يقرر فيما يقرر أن في النفس الانسانية نزعات فطرية يولد بها الانسان . وهذا يفتح الباب أمام من يقولون أن حب الملكية نزعة فطرية في البشر أجمعين .

ولكنهم مع ذلك يحبون « فرويد » ويؤمنون به ، ذلك أنه يشبع شهواتهم في تحطيم المقدسات كلها . وتلويثها . وتصويرها بأنها قيود ابتدعها المجتمع (الاقطاعى ثم الرأسمالى) لحماية ذاته ولكنها ليست في ذاتها شيئا يستحق الاعتبار .

فاذا تحطمت المقدسات وتلوثت صورتها في نفس الفرد ، وفي نفس المجتمع نتيجة لذلك فقد كسبت الشيوعية نصف المعركة على الأقل ، وهذا هو مصدر الاعجاب الشديد برجل لا يؤمن بكل ما يؤمنون .

على أن هذا الفهم المادى لطبيعة الانسان قد يمتدح الانسان بأنه قوة فعالة في هذا الوجود وليس معنى هذا أنه يؤمن بما فيه من جسد وعقل وروح ولكنه قصد خبيث الى اثبات سيطرة الانسان في الأرض وذلك طريق الى انكار الاله ومن ثم الدين والرسل والوحى . (١)

---

(١) محمد قطب - الانسان بين المادية والاسلام - ٦٣ - ٦٥

أثر نظرية التطور

ما اشرنا اليه أثر من آثار هذه النظرية . فهى في الحقيقة قلبت علم النفس رأساً على عقب . وقد كان لها آثار بعيدة المدى . فقد أدخلت الحيوان الى ميدان علم النفس من منطلق أن نظرية التطور الداروينية ادت الى فكرة الاستمرار والاتصال . فتطور الكائنات الحية مع تطور الأجيال ترى فيه نوعاً من الاتصال بين الأجيال المتعاقبة ، وترى فيه أيضا نوعاً من التغير التدريجي . وقد ربطت هذه النظرية الكائن بوظيفته بل أن أعضاءه تتوافق مع وظيفته الحيوانية في بيئته وهذا هو التكيف . وكان من ابرز آثارها أن تنازل المشتغلون بعلم النفس عن نظريات سابقة لعل أهمها أن الانسان يختلف اختلافاً جوهرياً عن الحيوانات . وظهر على أثر هذا كلام في علم النفس يقيس الانسان على الحيوان تماماً ، ومن هنا درس سلوك الحيوان . ذلك أن بعض علماء النفس (واطسون) أراد أن يدرس السلوك الانساني على أساس الفعل المنعكس أو الفعل ورد الفعل ، ولذا درس هذا في الحيوانات الدنيئة والراقية واعتبر سلوك الانسان مجموعة من الأفعال المنعكسة الشرطية .

وهو في كل هذا يتجاهل دور الانسان وارادته في تسخير هذا الكون الذى خلقه الله له .

ولعل أخطر هذه الآثار ما قرره (جون ديوى) و (كلابا ريد) من أن الانسان يولد ولديه استعدادات تشبّه استعدادات الحيوانات ودوافعه (وتقوم هذه الفكرة على الاتصال بين الانسان وبين المراتب العليا للحيوان) (١)

---

(١) عبد العزيز القوصى ـ علم النفس اسسه تطبيقاته ـ ٧٥ . ٧٦

وقد وضح هذا الأنجاه المادى في تعريفات كثيرة لعلم النفس وفي مفهوم أصحاب بعض الانجاهات التى أشرنا اليها .

و اذا كان الاغراق في المادية قد ترتب عليه هذا الغلو والحرف في آن معا . فان المنهج العقلى الذى يفسر هذه الطبيعة الانسانية بأنها طبيعة متفردة . وليستّ امتدادا للطبيعة الحيوانية . هو نفسه يسرف حين يعتبر هذه الطبيعة الانسانية ليست من الطبيعة الأرضية بوجه عام .

(وبناء على المنهج المتوسط الثالث تفسر هذه الطبيعة من ناحيتين معا : الأولى ان طبيعة الانسان تعّد استمرارا للطبيعة الحيوانية من زاوينها المادية . ومن الناحية الثانية ان في الانسان جانبا معنويا يتميز عن بقية الحيوانات ومن ثم يحتاج الى دراسة خاصة (١) وفي مجال هذه الدراسة الخاصة يكون التميع والاضطراب حيث ان المنطلق ليس اثبات الحانب الروحى واثره في حياة الانسان بقدر ما هو تصنيف وتفتيت هذا الانسان .

مهمة صعبة

طوفت هذه الاتجاهات ما طوفت وعادت دون ان تقول كلمة محددة في بيان طبيعة النفس الانسانية . وقد أرجع بعض الباحثين هذا التخلف الى أسباب بعضها يتصل بجهلنا بأنفسنا . وبعضها يتصل باختلاف مناهج البحث في هذا المجال كما أشرنا . وبعضها يتصل بعدم الاهتمام بهذه الدراسات كما يجب . (٢)

---

(١) مقداد يالجن وآخر ـ علم النفس التربوى في الاسلام ـ ٢٥

(٢) السابق ـ ٢٤ ، ٢٥

ومع اتفاقنا مع هذا الباحث في بعض الأسباب الا أننا نقرر ن الجهل بأنفسنا أمر لا ينفك عنا ما دمنا نجرى في هذه العلوم في مضمار غير المسلمين. ولا نعرف حقيقة الأمر كما يصوره القرآن وكما يبينه التصور الاسلامى لهذا الكائن المكلف. أما عدم الاهتمام بالدراسات النفسية اهتماماً يليق بكرامة الانسان فاننا أيضاً نقرر أن هناك اهتماما أدخل بحوث هذه العلوم دائرة التجريب. وما كان من نتائجه غير ما هو مقرر من الحيرة والاضطراب. نعم هناك غموض في الطبيعة الانسانية لا يزال مضروباً عليها رغم تعدد علم النفس وتنوعها. ولعل السر في ذلك أن العلم الحديث لم يستطع أن يغوص فيه لاستعصائه على الخضوع لمناهج العلم الحديث ومقاييسه الموضوعية، ولذلك عدل علماء النفس المحدثون عن البحث في جوهر النفس والعقل والروح ومدى صلة ذلك بمظاهر السلوك الانساني الى البحث عن مظاهر السلوك النفسى المادى لأنه يخضع لتلك المقاييس الموضوعية. (١)

وقد قرر أكثر من باحث في مجال علم النفس أن علم النفس كان يبحث أولاً في الروح ثم صار يبحث في العقل وانتقل بعد ذلك الى الشعور. وأخيراً صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى، وعن اضطراب علم النفس واخفاقه في مهمته هذه يقول أحد الباحثين فيه (أن علم النفس كان يبحث أولاً في الروح. ثم صار يبحث في العقل. وانتقل بعد ذلك الى الشعور وأخيرا صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى) وفي ذلك التاريخ الطويل الذى مرت به موضوعات البحث قال وود ورث عبارة فكهة. (ان علم النفس عند أول ظهوره زهقت روحه، ثم خرج عقله. ثم زال شعوره ولم يبق منه

(١) مقداد يالجن - علم النفس التربوى في الاسلام - ٢٥

الا المظهر الخارجي) (١) بل واعتراف أكثر صراحة من هذا بالأخفاق والفشل حين يناقش بعض الدارسين تعريفات علم النفس فيقرر أنهم حين يعرفون علم النفس بأنه علم يهتم بدراسة العقل يخطئون لأننا مع اعترافنا بأن هذا من اهتمامات علم النفس الا أن طبيعة العقل الانساني والحكم عليها أمر يحتاج الى استقراء وهذا صعب بل غير ممكن . ويرى أن هذه المحاولة ممن عرفوا العلم بهذا هى دخول به ميدان الجدل والفلسفة دون جدوى من المناقشة أو البحث . (٢)

ويرى هذا الباحث نفسه أن تعريفهم للعلم بأنه دراسة الطبيعة البشرية ليس بأسعد حالاً من سابقه لأننا لا ندرى ماذا تعنيه الطبيعة البشرية الى جانب تعقد هذا الموضوع وتشابكه ماذا يدخل فيه . وماذا يخرج منه ، ولذا فاننا نبقي حائرين في فهم الطبيعة البشرية كما تهمنا في بادئ الأمر في تقرير ماهية العقل الانساني (٣)

وتدل المقارنة بين نتائج هذا العلم قديماً وبينها حديثاً على ذلك . فقد شغل الفلاسفة قديماً ببحث جوهر النفس وخلودها ووحدتها . وصلتها بالجسم . وأدلة هذا وذاك بينما الدراسات الحديثة تتركز أساسا على مظاهر الأداء في ميادين مختلفة ، وهذا أدى بدوره الى تنوع فروع علم النفس مثل علم النفس التربوى وعلم النفس التعليمى وعلم النفس الاجتماعى والمهنى والطبي . وغير هذ (٤)

---

(١) القوصى - علم النفس - ٢٥ .

(٢) ضياءالدين ابو الحب - علم النفس التربوى - ١٤ .

(٣) السابق - ١٥

(٤) سابق - ٢٦ . قارن مؤلفات ارسطو في النفس ، وابن سينا ، ود . محمود قاسم حديثا مما تصدره مكتبة الدراسات النفسية الحديثة تجد صدق ما أشرنا اليه .

علم النفس التجريبي

منذ أن أرسى (فرنسيس بيكون) أساس المنهج التجريبي وهو يقدم النتائج الباهرة التي جاء على قمتها تحطيم الذرة واكتشاف أسرارها . وتطويعها لفائدة الانسان وقد بهرت هذه النتائج أصحاب الدراسات النفسية والمهتمين بتفسير طبيعة الانسان . بهرتهم فراحوا يجربون في مجال بحوثهم ، رأوا أن يجعلوا النفس الانسانية موضع التجربة مستهدفين قوانين صارمة تحكم النشاط النفسي . لكن النتائج لم تقدم نجاحا في هذا المضمار وبخاصة أنهم يريدون أحكاما شاملة للنفس الانسانية بمناحي نشاطها ونزوعها المختلفة .

ولقد جر هذا الفشل بعضهم الى انكار النفس مادامت التجارب المعملية لم تحتو ولم تصل الى أسرارها . (١)

لكن ذلك لا يعني فشلا نهائيا في هذا الميدان (التجريبي) بصفة خاصة ، اذ أن من الحق أن نقرر أن هذا العلم في ميدان علم النفس التعليمي ، قد أفاد فائدة وفرت وقتا ، وادخرت جهدا في باب تعليم الأطفال واختيار أنسب الوسائل . لكن أكبر الأخطاء وأخطرها هو أن العلماء تجاوزوا الحد الممكن لهذا الميدان . اذ بعد أن نجحوا في ميدان التعليم ظنوا أنهم قادرون على اصدار أحكام عامة وشاملة على النفس الانسانية وهنا وقعوا في أخطاء هبطت بالانسان الى مستوى الحيوانات بل الى مستوى الحشرات . (٢)

---

(١) محمد قطب ـ الانسان بين المادية والاسلام ـ ٥٥ ـ ٦٣ .

(٢) علم النفس التربوى ـ ٤٥ ، محمد قطب ـ الانسان بين المادية والاسلام ـ ٦٠ .

واذا كانت هذه هى المؤشرات التى تعطى مدلولاً عن نجاح هذا العلم أو فشله في بيان طبيعة النفس الانسانية وحقيقة سرها ودورها . اقول اذا كان هذا هو علم النفس بما يهتم به من دراسة للانسان فماذا عن غيره من العلوم الأخرى ؟

الحق أننا لا نريد وليس بوسعنا كذلك أن نقدم تصورات بقية العلوم الانسانية للانسان . ولكنا سنكتفي بتقديم شئ عن الاتجاه النفسى في علم الأخلاق . وهو لصيق بموضوعنا ، ثم نقدم لمسة موجزة توضح كيف تصورت العلوم البيولوجية والفسيولوجية هذا الكائن . لنكون قد وضعنا أمام القارئ نماذج نظنها كافية في الدلالة على تصورات العلوم لحقيقية للانسان .

النفس الانسانية في علم الأخلاق

من المقرر أن موضوع النفس شغل حيزاً كبيراً في الفكر الانساني . بدءا باليونان وحتى وقتنا هذا . ومقرر كذلك أن ضرورة تطهير النفس واصلاحها أمر حتمه وحبذه كل المفكرين وأن اختلفت اتجاهاتهم . (١)

غير أنه بين اتجاهات التفكير الأخلاقي لدى المسلمين . وجد اتجاه يهتم بالنفس اهتماماً بالغاً ، يفوق فيه أصحاب الاتجاه النصى . وأصحاب الاتجاه العقلى . وأصحاب هذا الاتجاه الروحى في الأخلاق

---

(١) انظر هذا ـ د. محمود قاسم ـ في النفس والعقل عند فلاسفة الاغريق والاسلام ـ ٢٤ ـ ٢٨ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٣ م مصر .
انظر هذا . د. قاسم ايضا ـ دراسات في الفلسفة الاسلامية ـ ١٠ ـ ١٣ طبعة ثالثة .
انظر هذا . د. محمد يوسف موسى ـ تاريخ الاخلاق ـ ٢١٠ الطبعة الثانية .

يركزون هذا الاهتمام على النفس الانسانية منطلقين فيه من منطلقات

لعل أهمها :

١ اتفاق هذا المنحى مع طبيعة التجربة الروحية التى تحتم صفاء النفس وتهذيبها .

٢ - تأثرهم بما قرأوا وسمعوا من أوصاف النفس والتحذير من اتباع هواها - في القرآن والسنة ، وسلوك الرسول وصحابته .

٣ – شعورهم - كغيرهم من المسلمين - بخطورة هذه الرذائل النفسية أو الأمراض النفسية - وضرورة علاجها طلباً للسلوك الأخلاقي الأمثل كما يراها الاسلام .

معنى النفس وأوصافها

في كثير من التعريفات التى قدمها فلاسفة الاسلام للنفس كانوا نقلة أمناء عن أرسطو دون تحويل أو تبديل فقد كان تعريفهم ترجمة حرفية للنص الاغريقي الموجود في كتاب النفس لأرسطو وهذا التعريف هو (أنها كمال أول لجسم آلى ذى حياة بالقوة) . (١)

لكن أصحاب الاتجاه الروحى . لم يعرفوا النفس بالحد المنطقي كما صنع غيرهم ، لكنهم قدموا أوصافاً للنفس الانسانية تحدد طبيعتها . ومدلولها عندهم مما يجعل من الضرورى تغيير هذه الأوصاف بالمجاهدة وقمع الهوى .

ولعل خير فهم لطبيعة النفس عند هؤلاء هو ما يقدمه ابن قيم

---

(١) د. محمود قاسم - في النفس والعقل - ٧١ .

الجوزية اذ يقول : (والمراد بالنفس عند القوم ما كان معلولاً من أوصاف العبد . مذموماً من أخلاقه وأفعاله ، سواء كان ذلك كسبياً أم خلقيا . فهو شديد اللائمة لها) (١)

وعليه فهم ينظرون الى النفس على أنها موطن الجهل والطيش والشر كوصف لابد أن يترقي وهم ينظرون الى أن النفس تستحق وصفها - كما جاء في القرآن - بمقدار ترقيها واقترابها من القلب - فالنفس الأمارة بالسوء هى التى تميل الى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية . وتجذب القلوب الى الجهة السفلية ، فهى مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة . قال الله تعالى « **ان النفس لأمارة بالسوء** » (٢) .

أما النفس اللوامة فهى التى تنورت بنور القلب تنوراً قدر ما تنبهت به عن سنة الغفلة ، فتيقظت وبدأت باصلاح حالها . مترددة بين جهتى الربوبية والخلقية وكلما صدر منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية تداركها نور التنبيه الالهى فأخذت تلوم نفسها وتتوب عن سيئتها ، مستغفرة . راجعة الى باب الغفار الرحيم . ولهذا بوأها الله مكاناً بذكرها بالأقسام بها ، « **ولا أقسم بالنفس اللوامة** » (٣) .

أما النفس المطمئنة فهى التى تم تنورها بنور القلب ، حتى تخلصت وانخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة . وتوجهت الى جهة القلب بالكلية .. مواظبة على الطاعات ، سالكة الى

---

(١) ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - ٢ - ٧ تحقيق محمد حامد الفقي ١٩٥٦ م
(٢) يوسف - ٥٣ .
(٣) القيامه - ٢ .

حضرة رفيع الدرجات . حتى خاطبها ربها بقوله . « **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادى وادخلي جنتي** » (٤) .

وفي كل نظرات أصحاب هذا الاتجاه للنفس تجد المعاني السابقة وهى أنها شر محض ما لم تترق بالطاعة والمثابرة والالتزام وسماع أمر القلب المستنير بنور الله سبحانه . (٥)

وربما كان أصلهم في هذا الفهم ما ورد في القرآن والحديث من ذم للنفس مثل قوله تعالى « **ان النفس لأمارة بالسوء** » وقوله تعالى « **ما اصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** »(١) .
وكذلك ما وجدوه في السنة من آثار تدل على ذلك . فقد روى البيهقي في الزهد عن ابن عباس باسناد ضعيف ، ولكن له شاهد بقوته من حديث أنس . روى قول الرسول ﷺ : « **أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك** » .

ومن هذا الفهم ركز أصحاب هذا الاتجاه على ضرورة اصلاح النفس وتهذيبها . وقد تناولوا هذا الأمر بأساليب تتفاوت في الشكل . لكنها تلتقي حول المعنى السابق لطبيعة النفس وكونها شريرة تقارن الهوى والشيطان . والرقي الأخلاقي يقتضى مخالفة هواها . (١)

---

(١) الفجر ـ ٢٧ ـ ٣٠ .
(٢) اصطلاحات القاشاني ـ ورقة ـ ١٥ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٧) .
مصطلاحات ، د . ابو الوفا التفتازاني ـ دراسات في الفلسفة الاسلامية ـ ١٣٩ (١٩٥٧ م)
(٣) لنساء ـ ٧٩ .
(٤) الترمذى (محمد بن على ت ٢٨٥ هـ) النفس والاعضاء ـ مخطوط ضمن رسائل الترمذى ـ ورقة ـ ٢ .

ضرورة التأديب للنوازع الشريرة في الانسان

منطقي - والنفس عندهم موطن الشر ومكمن الهوى - ان يكثر قولهم في ضرورة تأديب هذه النفس . وأن يكثروا الحديث عن أمراضها كطريق لعلاج الذى يحبذونه ، وذلك يكون بالقمع والمخالفة والتنبيه الى خطورة الاصغاء الى النفس وسوء الانخداع بوساوسها .

وأفكار أصحاب الاتجاه الروحى في هذا الصدد ليست كلمات فحسب بل صاحبها عمل وجهاد من ناحيتهم . فيحكى أبو الفرج الجوزى عن معروف الكرخى (ت ٢٠٠ هـ) انه كان يضرب نفسه ويقول لها : « يا نفس كم تبكين . اخلصى تخلصى (١) .

وينقل أيضاً قول السرى السقطى (٢٥٨ هـ) « أقوى القوة أن تملك نفسك . ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس » (٢) .

فعند السرى السقطى أن من أدب النفس الا تسكن الى المدح الكاذب حتى ولو كان هذا المدح مما تحبه النفوس المؤمنة ، كأن يقال لك أنت صالح أو ولى من أولياء الله فان هذا شراك خداع يجب أن يتنبه لها المسلم . (٣)

وبعيدا عن الأقوال المتناثرة في كتب التاريخ فان بعض أصحاب هذا الاتجاه قصر بحثه . لمعالجة هذه القضية . فنجد الحكيم الترمذى

---

(١) ابن الجوزى - صفة الصفوة - ٢ - ١٧٣ . (الطبعة الاولى) .
(٢) السابق - ٢ - ٢١٢ .
(٣) السابق ٢ ٢١٦

يفيض في الحديث عن هذه القضية الأخلاقية المهمة ، فيحذرنا من خطورة الاصغاء الى النفس ويعتبر من يقع في هذا مغروراً فأما الكيس فجدير به الا يكون ذلك (فالمغترون يقطعون أعمارهم باصغائهم بآذان قلوبهم الى نفوسهم والى ما يورد الهوى عليهم) . ويحذر من النفس فهي في خداعها جد ماكرة . وجهادها ليس سهلاً . فيقول : « فمن شأن النفس اذا جاءت بباطلها وجورها وكذبها في الأمور أن تعمى على صاحبها وتزين له ذلك حتى تغره ، وتموه عليه حتى يدوم ذلك الغرور . فقد اشترك في هذه المحنة الصديقون . والزاهدون . والعابدون . والمتقون . وعلماء الظاهر . وقل من سلم منهم من هذا الاغترار . فاذا كان هؤلاء الذين هم أعلام الدين في الظاهر لا يسلمون من غرور النفس فما ظنك بهؤلاء العامة » (١) .

ولهذا فان الحكيم يرى أن النفس التى تخدع وتغر صاحبها بهذه الصورة . لابد أن تؤدب وتقمع شهواتها . فيمنعها من بعض الحلال ـ تأديباً وتهذيباً ـ فضلاً عن الحرام ، مع ملاحظة أن هذا الحرمان ليس تحريماً لما أحله الله للناس . ولكنه مقتضى ضرورة التأديب .

« وهذا الذى وصفنا من ترك الشهوات وتجنبك الملذات ليس تحريم ما أحل الله لك ولكن تأديب نفسك ورياضة لها » (٢) .

ويفصل القوى في أدب النفس فيقول :
« وأدب النفس أن يمنعها من الحلال حتى لا تطمع في الحرام .

(١) الحكيم الترمذى ـ كتاب الاكياس والمغترين ـ ورقة ـ ١ (مخطوطة بجامعة القاهرة ٢٦٠٣٤)

(٢) الترمذى ـ الرياضة وادب النفس ـ ٢٩ ـ آربرى ـ ترجمة على حسن عبد القادر (١٩٤٧) .

وذلك أن النفس قد اعتادت لذلة التكلم بالكلام . فاذا الزمها الصمت فيما لابد منه حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لابد منه ، فقد ماتت شهوة الكلام . فاستراح وقوى على الصدق . فلا يتكلم الا بحق ، فصار سكوته عبادة . وكلامه عبادة . لأنه ان نطق بحق . وان سكت سكت بحق ، لأنه سكت مخافة الوبال » (١) .

والترمذى يرى صلاحية هذا المهج في تأديب النفس من كل الشهوات . ويذكر أن الأكياس راضوا أنفسهم فأدبوها فامتنعوا عن الحلال المطلق لهم حتى هدأت جوارحهم بعد أن سكنت لسكون غليان النفس وشهواتها (٢) وللرياضة التى يحبذها الترمذى أثرها على القلب بصفائه بعد قتل الشهوات النفسية . فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها بمنعها من الشهوات التى أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات الا ما لا بد منه كهيئة المضطر .. فكلما منعوها شهوة أتاهم الله على منعها نوراً في القلب فقوى القلب . وضعفت النفس ، وحيي القلب بالله جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار وخلت النفس من الشهوات .

أما ذلك الذى لا يروض نفسه ويعطيها مناها من الحلال حتى تترع . فانه يعمل كثيراً من البر مستظهرا به . ولذا يعجل له ثواب الدنيا . وعليه من المخاوف الكثير من الرغبة والرهبة من المخلوقين . ومن حب الدنيا والرياسة ، لأنه فسد باطنه وضرب قلبه (٣) .

---

(١) د . عبد الفتاح بركة ـ نظرية الولاية عند الترمذى ـ ٢ ـ ١٩٥ .
(٢) الرياضة وأدب النفس ـ ٤٧ .
(٣) السابق ـ ٥١ .

محاسبة النفس

ولأن النفس خادعة ماكرة . ولأن وساوسها وعدائها يفسدان العمل . وجدنا في الفكر الأخلاقي لدى أصحاب الاتجاه الروحي دعوة صريحة وجادة الى ضرورة محاسبة النفس . ويعنون بهذه المحاسبة أن يقف العبد وقفة عند ظهور المهمة وابتداء الحركة ثم يميز الخاطر . فان كان لله وبالله أمضاه وسارع في تنفيذه وان كان لعاجل دنياه أو عارض هواه . أو لهو وغفلة ، نفاه وسارع في نفيه ولم يمكن الخاطر من لبه بالاصغاء اليه والمحادثة له .

وحين نذكر محاسبة النفس نذكر علماً من أعلام البحوث النفسية في هذا الصدد انه الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) الذى برز في هذا الجانب : « اخواني وخصلة أعهد بها اليكم فيها جماع الخير كله . أوصيكم برعاية الجوارح والقلوب والتثبت بذلك في الأحوال كلها ولا تبدأوا بفعل ولا قول ، ولا تضمروا شيئاً الا بنظر وتدبير . فان كان محموداً عند الاله سبحانه ، فبادروا بفعله وما كان مذموما فجانبوه ، وما خفي عليكم معرفته فكلوّه الى العالم به وقفوا عنه حتى يأتي الله بعلمه وبيانه » (١) .

والمحاسبيّ الى جانب أن له من اسمه نصيباً ، فانه في الحقيقة قدم للفكر الأخلاقي ما يبرز اهتمامه بالنفس والقلب والجوارح ، وله في هذا كلام طويل نجتزئ منه « قلت أخبرني عن الازدراء على النفس كيف هو ؟ قال معرفتك بقدرها . وسوء رغبتها وأفعالها ومعرفتك بقدرها أن تعرف كيف ينبت في طبائعها وهيئتها وكيف استثقالها لطريق نجاتها من

---

(١) الحارث المحاسبي ـ الوصايا والنصائح الدينية ـ ٧٨ تحقيق عبد القادر عطا (١٩٦٤ م) مصر .

غير بغض للنجاة ، ولكن كراهة لحمل المؤن . وكراهة لترك محبوبها من عاجل الدنيا وكيف تعلقها بما فيه هلاكها من غير حب للهلكة في آخرتها ولكن بمقارنة لذاتها ومجانبة هواها في غير عاجل الدنيا . هذا مع اقرارها بأن ثواب الآخرة أعظم - ويعلم أن طبعها قائم بطلب ما يوافقها من الدنيا لا يغفل عن ذلك طرفة عين » (١) .

وجدير بالذكر أن المحاسبي يلفت النظر الى أن مخالفة النفس - بعد معرفتها - أمر ديني له صلة كبيرة في العلاقة بالله « لا تصدق الله حتى تصدق نفسك ولا تصدق نفسك حتى تعرفها ، ولا تعرفها حتى تفتشها وتعرضها على الله فتعرض أحوالها . ولا تعرض أحوالها حتى تتهمها فيما تظنها محسنة فيه .. فاذا عرفتها حذرتها واذا حذرتها تفقدتها واذا تفقدتها أبصرت روغانها من طاعة ربها عز وجل ، وتزينها بما لا يحب خالقها لأنها مصدر كل سوء فاعرف نفسك فانك لم ترد خيراً قط مهما قل الا وهى تنازعك الى خلافه . ولا عرض لك شر الا كانت هى الداعية اليه . (٢)

واذا كان المحاسبي قد شغل بأمراض النفس فان الجنيد بن محمد البغدادى ت (٢٩٨ هـ) قد أكثر الحديث في تأديب النفس مع الناس وكتب « أدب المفتقر الى الله » كما وصف دواء الأرواح ودواء التفريط والغفلة ، وهو يرى « ضرورة أن يفطن الانسان الى حالات النفس » وينبغى للعاقل الا ينفك من احدى ثلاثة مواطن : موطن

---

(١) المحاسبى الرعاية لحقوق الله - ٣٦ - ٣٩ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ . (د ت) تحقيق د . عبد الحليم محمود طه سرور وكذلك المحاسبي - المسائل في اعمال القلوب والجوارح - ١٤٨ ، ١٤٩ (تحقيق عبد القادر عطاء ١٩٦٩ م) .

(٢) المحاسبي - الرعاية - ٢٧٧ - ٢٨١ .

يعرف فيه حالة امتزايد هو أم منتقص ، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه والزامها ما يلزمها وموطن يستحضر عقله مجارى التدبير وكيف تختلف الأحكام آناء الليل وأطراف النهار » (١)

ولن يتسع المقام لعرض مفصل لما كتبه الجنيد ، أو غيره من أعلام هذا الاتجاه ولكن حسبنا أن نقرر أن فهمهم لطبيعة النفس وطبعها وأوصافها جعلهم يحتمون ضرورة تأديبها ومحاسبتها . ومخالفتها مادامت تأمر بالهوى ومادامت بعيدة عن الترقي .

ويمكن آن يقال أن أصحاب هذا الاهتمام بالنفس الانسانية قد قسوا عليها ولم ييسروا لها لكن ربما انجلى هذا الظن حين يعرف صاحبه أنهم يتحدثون عن نفس يغلب عليها هواها وأنهم يفطنون الى آثر هوى النفس على السلوك الانساني كله وأنه ليس صاحبه وحده هو الذى يخسر فيه بل تضار الانسانية كلها من جراء هذا الانحراف الخلقي . في هذا الصدد يؤخذ من أصحاب هذا الاتجاه أصل القضية وهو الاهتمام بالنفس وضرورة تقويمها ونرد عليهم مبالغاتهم في هذا أن وجدت . ونحن لا نحكم حكماً غير القرآن والسنة . وفي الحقيقة لقد أفاد أصحاب هذا الاتجاه الفكر كله حين تحدثوا عن بعض أمراض النفس وكيفية علاجها . وها نحن أولاً نذكر بعض فكرهم في هذا الصدد .

أمراض النفس وعلاجها

تعلق بالنفس الانسانية أمراض كثيرة كالحسد والكبر والعجب والغرور . ولعل أهم هذه الأمراض هو الرياء لأنه شرك أصغر ولأنه

---

(١) الجنيد ـ دواء التفريط ـ ورقة ـ ٢ . مخطوط معهد المخطوطات العربية ١٣٤ توحيد .

يحبط الأعمال . وقد تحدثوا عن هذا المرض وعلاجه نذكر من حديثهم في هذا الصدد : « قال الرياء هو الارادة وحدها الا أنه على وجهين أحدهما أعظم وأشد . والآخر أهون وأيسر . وكلاهما رياء . وانما الوجه الذى هو أشد الرياء وأعظمه ارادة العبد للعباد بطاعة الله عز وجل ، لا يريد الله عز وجل بذلك ، كما قال النبي ﷺ حين سئل فيم النجاة ؟ قال : الا تعمل بطاعة الله تريد الناس » وكذلك يروى عن النبي ﷺ أن المرائي ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق : يا فاجر ، يا غادر ، يا مرائي ، ضل عملك وحبط أجرك أذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له .

وأما الوجه الذى هو أدني وأيسر فارادة العباد بطاعة الله عز وجل وارادة ثواب الله عز وجل يجتمعان في القلب ، الارادتان ، ارادة المخلوقين وارادة ثواب الله . وهو أدني الرجاء وهو الشرك بالارادة في العمل ، لأن الأول أراد الناس ولم يرد الله عز وجل . وهذا أراد الله عز وجل والناس . وكذلك يروى عن النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى يقول : « **أنا أغنى الشركاء عن الشريك . من عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه براء . وهو للذى أشركه** » (١) .

ويذكر المحاسبي أن المصابين بهذا المرض الخطير تتفاوت حالة اصابتهم به واستحكامه منهم . فيذكر أن المرائين درجات أشدها خطراً من يرائي في الأيمان يظهره وهو يعتقد التكذيب والشك ويليه من يرائي بالفرائض كالصلاة والزكاة وغيرهما . ويليهما من يرائي بالسنن الواجبة كالجماعات ونحوها . ويليه من يرائي باكمال الفرائض كتطويل الركوع

---

(١) الرعاية لحقوق الله ـ ١٣٥ .

والسجود فاذا خلا له المكان خفف ونحو هذا . (١)

أما عن الآثار الخلقية لهذا المرض الخطير فهى ظهور بعض الخلال منها : المباهاة بالعلم والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا . وقد يعترى التفاخر أيضاً من جهة الكبر . ولكن التفاخر من جهة الرياء جزعاً أن يعلى ومحبة أن يعلو . والتكاثر بالمال وغيره من أمر الدنيا والتحاسد على العلم والعمل لغير منافسة ولكن جزعاً أن ينال من يحاسد من المنزلة والحمد ما لا يناله هو ، ورد الحق على من ناظره لئلا يقال : هو أعلم منه . وحب الرئاسة والغلبة في المناظرة وترك التعلم لما يحتاج اليه من العلم (٢)

ويعرف المريض بهذا المرض بمظاهر منها أنه يحب الحمد على طاعة الله عز وجل ، ويكره الذم . ويدع الطاعة من أجل الذم ، واذا عمل عملاً لم يعلم به غير الله ، أو علم علماً لم يعلم به الا الله ، لم تقنع نفسه في عمله وعلمه بعلم الله عز وجل ونظره وسمعه وحده ، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره ، يهتم لذلك ، فان اطلعوا عليه ارتاح قلبه لذلك وسر بحمدهم وأخف الناس عليه من حمده وأثنى عليه وأثقل الناس من ترك حمده والثناء عليه ، ولا تسخو نفسه باتيان طاعة الله لا يعلمها أحد . فان أراد نفسه على ذلك ثقل عليها . ولم تطاوعه عليه . (٣)

أما عن العلاج فنقدم هذه اللمسات ، فهم يؤكدون على أنه لابد من مراقبة الانسان نفسه فلابد أن يكون العمل متوجهاً به الى الله لا

---

(١) السابق - ١٨٤ .
(٢) السابق - ١٨٤ .
(٣) الرعاية لحقوق الله - ١٨٩ .

يريد به غيره قانعاً بعلم الله وحده ، فان اطلع عليه غير الله منع قلبه من الفرح والطرب الزائد بهذه ، فان غلب الطبع في ذلك ، منع قلبه من الركون اليه ولابد من الفطنة والحذر حتى يفرغ من عمله ويحاول جاهداً أن يمنع قلبه من الرغبة في اظهار عمله للناس . طلباً للمدح منهم أو الفضيلة عندهم . وأن يراقب النية ويخلصها من كل شائبة ، حذراً من غفلة يحصيها الله سبحانه عليه وهو أعلم بكل شئ . (١)

وقد وصف الحكيم الترمذى طريقة للعلاج راعى فيها التدرج مع النفس حتى تقتلع منها الرذائل ، وهنا يمكن أن يحل محلها الفضيلة وقد أخذ بهذا العلاج التدريجى كثير من باحثى الأخلاق . حيث يرون في ذلك تيسيراً على النفس وواقعية في التعامل معها . وذلك بأن يعودها الانسان الفعل الحميد . تكلفاً في أول الأمر ثم يصير طبعاً فيها . (٢)

وجميع وسائل العلاج النفسى تحتويها المجاهدة والرياضة للنفس وأخذها بالطاعات وهذا منحى لا يختلف عليه عاقلان .

على أية حال لقد اهتم أصحاب هذا الاتجاه اهتماماً بالغاً بأمر النفس الانسانية طبيعتها وصفاتها وأمراضها وعلاجات هذه الأمراض وهذا الاهتمام كان له صدى غير قليل في فكر المسلمين - كابن مسكوية وابن قيم الجوزية ، وابن حزم - وفوق هذا الأثر فهو يعكس الاهتمام المبكر بالبحث في داخل الانسان مثلما فعلت علوم النفس مؤخراً فيما أشرنا اليه .

---

(١) السابق - ١٩٠ (الرعاية لحقوق الله) .
(٢) سلطان بك محمد - الفلسفة العربية والاخلاق - ٢ - ٦٩

سريان هذا الاهتمام في الفكر الاسلامى

قد يكون طبيعياً أن نجد نفس الاهتمام لدى الامام الغزالى لأنه مع فقهه وعلمه اهتم بهذا الجانب الروحي وهو ولا شك واحد من ابرز أعلام هذه المدرسة في الفكر الأخلاقي ، كما يتضح من بحوثه ومؤلفاته . (١)

نقول قد يكون هذا الاهتمام متمشياً مع اتجاه الامام الغزالى ولكننا نلاحظ أن كثيرين غيره اهتموا بالنفس الانسانية ، علّى اختلاف مشاربهم العلمية ومن هؤلاء :

أبو على أحمد بن محمد بن مسكوية
(توفي حوالى ٤٢١ هـ)

يقترن اسم ابن مسكوية بتاريخ علم الأخلاق عند المسلمين . فيذكره تاريخ هذا العلم بأنه أول من صنف في علم الأخلاق ويذكرون كتابه « تهذيب الأخلاق » الذى تثبت الدراسة العجلى فضلاً عن المتأنية أنه ـ أى الكتاب ـ صورة حية للتأثير اليوناني في علم الأخلاق لدى ابن مسكوي ومن سار على نهجه ، ونود أن نصحح فكرة خاطئة هنا هى أن هذا الكتاب أول تصنيف في علم الأخلاق ذلك أنه سبق بمحاولات عديدة مثل رسائل ابن أبي الدنيا (٢٨٣ هـ) وغيرها من كتابات أمثال الحكيم الترمذى (٢٨٥ هـ) والحارث المحاسبي (٢٤٣ هـ) وغيرها من كتابات الأخلاق التى ظهر أثرها عند أبي حامد الغزالى . وبصورة خاصة في كتابه الاحياء .

---

(١) الغزالى (محمد بن احمد ت ٥٠٥ هـ) احياء علوم الدين ـ ٣ ـ ٤٧ نشر مكتبة صبيح (مصر) . ميزان العمل ـ ٣١ . نشر مكتبة الجندى (مصر) .

على أية حال - فمع اتجاه ابن مسكوي هذا - فقد اهتم بالحديث عن النفس الانسانية ، من حيث ضرورة تطهيرها واقتلاع الرذائل منها قبل غرس الفضائل « فأما الفضائل فليست تحصل لنا الا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التى هى اضدادها . أعنى شهواتها الردية الجسمانية . ونزواتها الفاحشة البهيمية . فان الانسان اذا علم أن هذه الأشياء ليست فضائل بل هى رذائل تجنبها وكره أن يوصف بها (١) » . من هنا كانت دعوة ابن مسكوية الى معرفة النفس والوقوف على أمراضها طريقاً الى العلاج « فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ أمراض نفوسنا . فان كان مبدؤها من ذاتها كالتفكر في الأشياء الرديئة واجالة الرأى فيها . وكاستشعار الخوف من الأمور العارضة أو المترقبة ، والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها . وان كان مبدؤها من المزاج أو الحواس ، كالخور الذى مبدؤه ضعف جرأة القلب مع الكسل والرفاهة . وكالعشق الذى مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضاً علاجها بما يخص هذه » (٢) ولكن لم يترك الأمر حديثاً عاماً . بل تعرض لبعض الأمراض ووصف بالتحديد طريقة العلاج للنفس بصفة عامة ، فهو يقول مثلاً عن مرض العجب الذى يقترن بالرياء :

« أما العجب فحقيقته أنه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة غير مستحقة لها . وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقصانات التى تعتورها . وأن الفضل مقسوم بين البشر . وليس يكمل الواحد منهم الا بفضائل غيره ، وكل من كانت فضيلته عند غيره

---

(١) ابن مسكوية - تهذيب الاخلاق ١٠١ (تحقيق قسطنطين زريق - الجامعة الامريكية بيروت ١٩٦٦ م) .

(٢) السابق - ١٧٦ .

فيجب عليه الا يعجب بنفسه » (١) .

أما العلاج لهذا المرض وغيره عند ابن مسكوي فصفته القسوة على النفس وأخذها بما يعيدها الى جادة الصواب . ويقربها من سماع صوت القلب والاستجابة له . « وان أنكر من نفسه مبادرة الى غضب في غير موضعه أو على من لا يستحقه أو زيادة على ما يجب منه . فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يعرف بالبذاءة ثم ليحتمله . أو التذلل لمن يعرف بالخيرية ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك ، أو ليفرض على نفسه مالاً يخرجه صدقة ، وليجعل ذلك نذراً عليه لا يخل به » (٢) فالنفس الانسانية عند ابن مسكوية مكمن الأمراض . وموضع الشهوات . ومنبع الهوى والأمر بالسوء وأن هذا يحتم على صاحبها ـ ان أراد أن يقيها النار ـ أن يتعرف على هذه الأمراض فيدرس مأتاها ومردها ليخلص من هذه العناية بها الى علاجها . ولو بالقسوة عليها . لأنه في هذا محب لها وساع الى تخليصها من براثن الشيطان . وسعيه هذا اجتهاد ، ان أخلص النية فيه وفقه الله الى علاج نفسه وتبرئتها مما يشينها « فليس يتعذر على العاقل المحب لنفسه ، الساعي لها فيما يخلصها من آلامها وينجيها من مهالكها ، أن يتصفح الأمراض التى تمت هذه الأجناس من أنواعها وأشخاصها ، فيداوى نفسه منها . ويعالجها بمقابلاتها من العلاجات ، والرغبة الى الله عز وجل بعد ذلك بالتوفيق ، لأن التوفيق مقرون بالاجتهاد ، وليس يتم أحدهما الاّ بالآخر » (٣) .

---

(١) تهذيب الاخلاق ـ ١٩٦ .
(٢) السابق ـ ١٨٧ .
(٣) السابق ـ ٢٢٢ .

وهنا لابد من الاشارة الى أن هذا الاهتمام بالنفس لدى مسكوية ليس وليد تأثره بالفكر الأخلاقي عند أرسطو وغيره من مفكرى اليونان ، ولكنه أثر جاءه من ثقافته الاسلامية . وقراءته ومعرفته لاهتمام أصحاب الاتجاه الروحى بالنفس وأمراضها وعلاجاتها . الأمر الذى يتضح جلياً من المقارنة السريعة بين كتابات ابن مسكوية في هذا الجانب وبين من سبقه ممن اهتموا بها . وقد سجل هذا أحد الباحثين في دراسة له قارنت ووصلت الى ما أشرنا اليه . (١)

ابن حزم (على بن أحمد ت ٤٥٦ هـ)

فاذا جئنا الى الفقيه المؤرخ ابن حزم وجدناه في نفس الاهتمام . ويتحدث عن ضرورة معرفة النفس والوقوف على أمراضها وأخذها بالعلاج الذى يرى أنه الرياضة والمجاهدة لها .

واهتمام ابن حزم هذا يجعلنا نفسره بواحد من اثنين ، اما أن عدوى الاهتمام بالنفس لدى أصحاب الاتجاه الروحى قد أصابته كما أصابت ابن مسكوي وغيرهما .

وأما أن البحث في معرفة النفس وأمراضها ووصف علاج هذا أصبح ضرورة منهجية ومنطقية لمل من يكتب في الأخلاق .

ولا غرو فابن حزم له رسالة في الأخلاق تهتم بمداواة النفوس وعلاجاتها . ولقد تحدث عن بعض أمراض

---

(١) د . محمد كمال جعفر - في الفلسفة والاخلاق / ٢٦٧ (دار الكتب الجامعية بالاسكندرية ١٩٦٨ م) .

واما أن البحث في معرفة النفس وأمراضها ووصف علاج هذا أصبح ضرورة منهجية لمن من يكتب في الأخلاق .

ولا غرو فابن حزم له رسالة في الأخلاق تهتم بمداواة النفوس وعلاجاتها . وقد تحدث عن بعض أمراض النفس كالعجب فقال : « من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه فان أعجب بفضائله . فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة ، فان خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته الى الأبد وأنه أتم الناس نقصاً ، وأعظمهم عيوباً ، وأضعفهم تمييزاً ... فالأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه ، أما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته وأما لأنه يقدر أن عيوبه خصال ، وهذا أشد عيب في الأرض » (١) .

اما العلاج فقد رأى أنه الرياضة والمجاهدة وهو يدرك صعوبة هذا العلاج الى الحد الذى جعله يقول : « واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأسد لأن الأسد اذا سجنت في البيوت تتخذ هالها الملوك أمن شرها ، والنفس وان سجنت لم يؤمن شرها » (٢) .

لكنّ ابن حزم مع ادراكه صعوبة هذا العلاج ، أخذ به نفسه ، وعالج به أمراضها كما يحكى هو عن تجربته هذه «كانت في عيوب فلم أزل بالرياضة ، واطلاعى على ما قاله الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس ، أعاني مداواتها حتى أعاننى الله عز وجل على أكثر ذلك

---

(١) ابن حزم ـ الاخلاق والسير في مداواة النفوس ـ ٧٠ (الطبعة الاولى ـ دون تاريخ) .

(٢) السابق ـ ٨٢ .

بتوفيقه ومنه .. فنها كلف في الرضاء وافراط في الغضب . فلم أزل اداوى ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط . وامتنعت مما لا يحل من الانتصار . وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً . وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أعجزني وأمرضني ... ومنها عجب شديد . فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة . واستعمل التواضع » (١) وهكذا يبدو الاهتمام الذى يجاوز النظر الى التطبيق . حيث أخذ هذا الفقيه نفسه بهذه القسوة ليصلحها .

ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر ـ ٧٥١ هـ)

وهذا الاهتمام سالف الذكر نجده عند ابن قيم الجوزية ، تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، بل وأبرز شراح الاتجاه السلفي ، لكن اتجاهه هذا لم يجعله بعيداً عن دراسة هذه الظاهرة الهامة في الفكر الانساني بعامة وفي الفكر الاسلامى على وجه الخصوص فيأخذ ابن قيم الجوزية في حكاية اتفاق المتخلقين والباحثين في هذا الأمر . يحكي اتفاقهم على ضرورة معرفة النفس ، وتطهيرها ومحاسبتها ويفيض ابن قيم الجوزية في شرح هذا فيقول :

« وقد اتفق السالكون الى الله على اختلاف طرقهم . وتباين سلوكهم . على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول الى الرب . وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل اليه الا بعد اماتتها . وتركها بمخالفتها والظفر بها ... فان الناس على قسمين : قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته ، فصار طوعاً لها تحت أوامرها . وقسم ظفروا بنفوسهم

---

(١) ابن حزم ـ الاخلاق والسير في مداواة النفوس ـ ٣٢ ـ ٣٣ .

فقهروها . فصارت طوعاً لهم ، منقادة لأوامرهم . « **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأول** » (١) . فالنفس تدعو الى الطغيان وايثار الحياة الدنيا . والرب يدعو عبده الى خوفه ونهى النفس عن الهوى . والقلب بين الداعيين يميل الى هذا الداعى مرة والى هذا مرة ، وهذا موضع المحنة والابتلاء » (٢) .

فاذا جئنا الى محاسبة النفس واهميتها وجدنا لابن القيم كلاماً جيداً يعكس اهتمامه بأدب النفس ، تجتزئ منه : « ومحاسبة النفس نوعان : نوع قبل العمل ونوع بعده . فأما **النوع الأول** فهو أن يقف عند أول همة . فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر .

النوع الثاني : محاسبة النفس بعد العمل . وهو ثلاثة أنواع . **أحدها** محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى ، وحق الله في الطاعة ستة أمور هى : الاخلاص في العمل والنصيحة لله فيه . ومتابعة الرسول فيه وشهود مشهد الاحسان فيه ، وشهود منة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه .

وبعد ذلك كله يحاسب نفسه : هل وفي هذه المقامات حقها ؟ وهل أتي بها في هذه الطاعة ؟ **الثاني** : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله . **الثالث** : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد . لم فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحاً ؟ أو أراد

---

(١) النازعات٣٧-٤١ .

(٢) ابن قيم الجوزية - اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ١ - ٩١ - (طبعة الحلبى ١٩٦١ م (مصر) تحقيق محمد سيد كيلاني .

به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ، ويفوته الظفر به » (١) .

ويطيل ابن القيم الجوزية الحديث عن المحاسبة ثم يلخص رأيه فيقول : « وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض ، فاذا تذكر فيها نقصاً تداركه ، أما بقضاء أو اصلاح ، ثم يحاسبها على المناهي ، فان عرف أنه ارتكب منها شيئاً ، تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ، ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فان كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والاقبال على الله تعالى ، ثم يحاسبها بما تكلمت به ، أو مشت اليه رجلاه ، أو سمعت أذناه . ماذا أردت بهذا ؟ ولم فعلته ؟ وعلى أى وجه فعلته ؟ » (٢) .

ومن خلال هذه النصوص التى قدمناها يجد الدارس نفسه أمام اهتمام هذا العالم السلفي بقضايا النفس الانسانية ، معرفتها ، وضرورة تأديبها وأخذها بالمحاسبة والمجاهدة .

وهذا الاهتمام في عمومه محاولة من علم الأخلاق لدى أصحابه المتخصصين فيه محاولة منه أن يقف على شئ من طبيعة النفس الانسانية ولدى غيرهم كذلك من الفقهاء والمؤرخين الأمر الذى يجعل الاهتمام بالنفس الانسانية في مجالاتها قاسماً مشتركاً بين كل المهتمين بالانسان وتوجيهه نحو دوره المنوط به .

وليس أصحاب الأسماء التى ذكرناها هم وحدهم الذين اهتموا

---

(١) اغاثة اللهفان ـ ١ ـ ٩٧ ـ ٩٩ .
(٢) السابق ـ ٩٩ .

بالنفس الانسانية بل نجد ذلك لدى كثيرين من القدامى ومن المحدثين على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم الفكرية - فهذا هو بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول يصف ناسا بالحكمة لأنهم بحثوا أمر النفس الانسانية « قال بعض الحكماء : ان النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة . لا يستغنى بمحمودها عن التأديب . ولا يكتفي بالمرضّي منها عن التهذيب لأن لمحمودها اضداداً مقابلة ، يساعدها هوى مطاع وشهوة غالبة وان أهمل تأديبها تفويضاً الى العقل ، أو توكلاً على أن ينقاد الى الأحسن بالطبع ، أعدمه التفويض درك المجتهدين . وأعقبه التواكل ندم الخائبين . فصار من الأدب عاطلاً ، وفي سورة الجهل داخلاً » (١) .

ويتحدث في كثير من مباحث كتابه عن النفس مذاهب الناس فيها . وفي طبيعتها ويعرض للتسميات القرآنية (الأمارة - اللوامة - المطمئنة) مبيناً أن كل تسمية تنبع من مدى صلة هذه النفس بالشهوات وانقيادها لها أو تعاليها عليها » . (٢)

كذلك نجد أحمد أمين يرى أن ضبط النفس من غير ما تعذيب لها هو فضيلة لا ينكر أثرها . (٣)

وفي غير الفكر الاسلامي نجد نفس الاهتمام . وكأن تنقية النفس . والسمو بها طريق ضروري لتحصيل الحكمة والمعرفة فضلاً عن اتزان

---

(١) العاملي (بهاء الدين) الكشكول - ٢ - ١٣٣ (تحقيق طاهر الزاوى - دون تارخ) .
(٢) السابق - ٢ - ٤١٣ - ٤١٧ .
(٣) أحمد امين - الاخلاق - ١٩٩ (طبعة ١٩١٤ م) مصر .

السلوك ، وحينئذ ينبغي لنا أن نعمل بالتدريج على تنمية الصفات التي تضفي على الأخلاق عظمتها . وقد كان رجال الدين على حق حيث رأوا - بمالهم من خبرة طويلة - أن يجعلوا امتحان المثالب وتطهير العواطف والفهم ، وارادة التقدم الخلقي ، بداية الطريق للسمو الروحي . فمن الضروري أن يبدأ المرء باتباع هذا المسلك ثم يقوم بعد ذلك بتحصيل الاستقامة الفعلية وحب الحقيقة والأمانة » (١) .

فاذا أضفنا الى كل هذا محصلة ابن خلدون لهذا الأمر في كتابه شفاء السائل . والذى أفاض الحديث فيه عن النفس وطبيعتها وأدبها ومجاهداتها ووزن كل هذا بميزان الشرع . اذا أضفنا هذا أدركنا سر الاهتمام من علمى النفس والأخلاق بهذه النقطة الهامة في حياة الانسان .

سر اهتمام البحث بهذه الدراسات

هذه الدراسات هى في واقع الأمر جزء من علم الأخلاق والذى ذكرنا أنه يهتم بمحاولة بيان الطبيعة الانسانية ، وسواء كان هذا العلم قد تأثر باليونان لدى بعض مؤلفيه أو يغلب عليه السمت الاسلامى لدى البعض الآخر . أقول سواء هذا أو ذاك فهو علم يهتم بدراسة سلوك الانسان ، ولسلوك الانسان ، ارتباط كبير بدوره الذى يحدده لنا التصور الاسلامى ، اذاً فاهتمامنا بهذه الدراسات هو جزء من خطتنا في التعرف على منحى هذه العلوم في التعرف على الانسان .

فاذا علمنا أن هذه المباحث الأخلاقية في ميدان النفس

---

(١) الكسيس كارل - تأملات في سلوك الانسان - ١٢٠ - ترجمة د . محمد القصاص مراجعة محمود قاسم (١٩٤٩ م) .

الانسانية . ترتبط بحقيقة مسئولية الانسان كما يصرح بهذا بعض مفكرى الأخلاق الاسلاميين . اذا علمنا هذا أدركنا سر اهتمام البحث بهذه الدراسات .

فالراغب الأصفهاني يرى أن الخلافة في الأرض تستحق بالسياسة التى تتضمن نوعين :
١ - سياسة الانسان لنفسه وبدنه وما يختص به .
٢ سياسته لغيره . ومن عجز عن سياسة نفسه كان عن سياسة غيره أعجز (١) .

فأدب النفس عنده شرط أساسى لعمارة هذه الحياة « لا يصلح لخلافة الله ، ولا يكمل لعبادته . وعمارة أرضه ، الا من كان طاهر النفس . قد أزيل رجسها ونجسها . فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة ، لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك الا بالبصيرة ، واياها قصد تعالى بقوله : « **انما المشركون نجس** » (٢) ، **والرجس فاهجر** » (٣) « **وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** » (٤) . وانما لم يصلح لخلافة الله الا من كان طاهر النفس . لأن الخلافة هى الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحرى الأفعال الالهية . ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل .. ولهذا قيل من طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله .

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة - ١٩ .
(٢) التوبة - ٢٨ .
(٣) المدثر - ٥ .
(٤) الانعام - ١٢٥ .

وقال عليه الصلاة والسلام : **المؤمن أطيب من عمله ، والكافر أخبث من عمله** » (١) .

من هذا كان رأى من رأى أن تأديب النفس بالرياضة ، واستصلاحها فهو ما كان على حال لا يقبل العقل خلافه (٢) وهذا يعنى أن أدب النفس مطلب عقلى فوق أنه شرعى . اذاً فاهتمام البحث بهذه الدراسات لم يبعد عن خطه . ولكنه عرج ووقف طويلا بعض الشئ على ناحية هامة من محاولات العلوم لاكتشاف طبيعة الانسان . ونحن هنا لا نناقش منطلقهم في شرية هذه النفس . ومدى توفيقهم في هذا ولكنا نسأل هل هذه المحاولات قدمت تصوراً لطبيعة الانسان تمهيداً لفهمها حقيقة دوره الذى من أجله كاَن انساناً ؟

ويمكننا القول ـ في ضوء ما سبق ـ بأن علم الأخلاق في اتجاهه هذا لم يقدم تصوراً لطبيعة الانسان . وان كان قد أغرق نفسه في بحوث تتسم بالجزئية بعض الشئ في مجال النفس والقلب والنية . وأقول أنها جزئية لا للتقليل من قيمتها فهى في بابها بحوث رائدة كانت الطريق لما يمكن أن يسمى بعلم النفس الاسلامى ، ولكن لأنها قصرت همها داخل الأثر الأخلاقي لطبيعة النفس وما دار حولها من بحوث ، دون أن تربط هذا التصور لطبيعة النفس الانسانية وعلاقتها بالقلب . دون أن تربط هذا كله بحقيقة الانسان كما أراد الله له . وكما أرادها طريقاً للدور الذى حدده التصور الاسلامى لهذا المخلوق المكلف المسئول .

---

(١) الذريعة ـ ٢٠ .

(٢) الماوردى (أبو الحسن على بن محمد ٤٥٠ هـ) ادب الدنيا والدين ـ ٢٢٩ ـ تحقيق مصطفى السقا (طبعة رابعة ١٩٧٣ م) .

وكذلك أتت الجزئية الى هذه المعالجات من تركيزها الشديد على الجانب الروحي والداخلي للانسان . وكأنها بذلك وما نظنها تقصد اليه قد اهملت بقية الجوانب في هذا الكائن لأنه كما نعلم ليس الانسان انساناً بروحه وحدها مع أهميتها ولا بجسده وحده مع كونه مظهر الانسانية المتميزة عن الحيوانية . ولا بعقله وحده مع كون آثاره أبرز ما يميز الحضارة الانسانية . ومع أهميته في تفهم الدين فضلاً عن الدنيا ، ليس الانسان بواحد من هذه منفرداً ولكنه بهذه كلها ثم بالنفخة الالهية التى أعطته انسانيته .

وعليه فأية محاولة لحصر الانسان داخل نطاق معين . مادياً كان النطاق أو عقلياً أو روحياً فانها محاولة محكوم عليها بالجزئية أولاً . ثم بالفشل ثانياً في تصور طبيعة هذا الانسان .

ولست أعنى بهذا الدفع لهذه المحاولات أن نلقيها في عرض البحر ، ولكنا نفيد منها في مجالها دون أن نعتبرها مصدراً معتبراً نستقي منه فكرتنا عن طبيعة الانسان . لأن تصورنا لهذه الطبيعة يترتب عليه تصور آخر أكثر أهمية ، هو تصور دور الانسان فبقدر شمولية معرفتنا بطبيعة هذا الكائن تكون شمولية دوره والعكس صحيح .

دراسات في جسم الانسان :

واذا كانت المباحث النفسية حول طبيعة الانسان لم تصادف كبير نجاح حتى في الجزء التجريبى منها وشبيه بهذه النتيجة بحوث علم الأخلاق . فان الأمر يختلف نسبياً بالنسبة للعلوم التى شغلت بجسم الانسان ومكوناته . وان كانت لا تزال أمامها كثير من علامات الاستفهام تحيرها وتضعها موضع المتحدى رغم ما وصل اليه العلم في

هذا المجال « **وفوق كل ذى علم عليم** » (١) .

لكن هذه الدراسات ـ مع اعترافها بالقصور ـ قدمت الكثير عن جسم الانسان ووصلت الى نتائج صدقتها التجربة وأفادت الانسان في هذا المجال منها :

ان هذا الجسم يمتلئ بالخلايا التى تتنوع وتختلف وان اتحد رافدها الأول وان هذه الخلايا لابد من أن تتبادل الصلات . وعلى قدر هذه الصلات تتوقف صحة الانسان أو مرضه ، وقوته أو ضعفه . « فكل عضو وكل نسيج يخلق وسيطه الخاص على حساب بلازما الدم .. وتتوقف صحة كل واحد منا أو مرضه ، سعادته أو تعاسته ، قوته أو ضعفه على ترتيب التبادل المشترك بين هذه الخلايا ووسيطها » (٢) .

ومنها أن هذا الجسم يتكيف ويتلاءم مع كل الظروف الجوية التى تحيط به بطريقة آلية ، على عكس كثير من الحيوانات ضخمت أو هزلت ولعل في معرفة هذه الحقيقة ما يساعد الانسان على اختراق حاجز الخوف من مكان أو بيئة لم يتعود العيش فيها من قبل « والجسم البشرى يحتفظ بالنشاط العادى لمبادلاته الكيميائية في أشق الظروف المعاكسة ، فالتعرض للبرد الشديد لا يقلل من تفاعل الأغذية .. وتنهار درجة حرارة الجسم عند اقتراب الموت فقط .. وعلى العكس من ذلك تقلل الدببة والراكون (حيوان أمريكى مفترس بحجم الهر) من

---

(١) يوسف ـ ٧٦ .
(٢) الكسيس كاريل ـ الانسان ذلك المجهول ـ ٩٧ ـ تعريب شفيق فريد مؤسسة المعارف بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

تجدد خلاياها في فصل الشتاء وتتراجع الى حالة من الحياة أكثر بطئاً » (١) .

قطعت حجبه

هذا التكيف الذى يحققه الجسم لا يقوم به بعض الأعضاء أو الغدد دون بعض بل جميع الجسم بشقيه العضلى والعقلى يتكاتف كل ليحقق هذه المهمة « يسجل المنبه الذى يقع عليه من بيئته بواسطة جهازه العصبى ، وتقدم أعضاؤه الجواب المناسب على هذا المنبه .. ويناضل الانسان في سبيل بقائه بعقله أكثر مما يناضل بجسمه .. وفي هذا النضال المستمر لا غنى له عن عقله ورئتيه وكبده وغدد الاندوكرين . مثلما أنه لا غنى له عن عضلاته ويديه ، وأدواته وآلاته وأسلحته » (٢) .

وما قررته هذه البحوث من تكيف الجسم مع نفسه داخلياً . ومع بيئته خارجياً ، ميزة تميز الانسان عن غيره من الأحياء وان كانت تدل بالقطع على مدى تعقد وتشابك هذه الخلاصات التى تكون الانسان وتعطيه سمته المميز .

ومن أهم النتائج التى وصلت اليها هذه الدراسات تحديد العلاقة بين الجسم والعقل وتوقف كل من النشاطين على الآخر . فالنشاط العقلى والجسمى وجهان لشئ واحد ، يخطئ من يعتبرهما شيئين مختلفين ، ولعل في هذا رداً على أولئك الذين ينظرون الى الانسان من خلال الجانب الروحى أو العقلى فقط ، وعلى أولئك الذين ينظرون اليه

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ٩٩

(٢) السابق - ١١٢

يبحثون في طبيعته على أنه مادة جامدة لا تخرج عن نطاق الأرض وما يلابسها من عدم رفعة أو سمو « اذ أن الحقيقة لا تخرج عن أن الجسم والروح هما وجهان لشئ واحد، استخلصتها وسائل مختلفة وخلاصات مختلفة أيضاً، حصلنا عليها بعقلنا من وحدة وجودنا الصلبة .. والتناقض البادى بين المادة والعقل يمثل فقط تعارض نوعين من الفنون. ولهذا فان الغلطة التى وقع فيها ديكارت كانت اعتقاده بصحة هذه الخلاصات واعتبار، المادة والعقل شيئين مختلفين. وقد كان لهذا التقسيم أثره البعيد في تاريخ معرفتنا بالانسان (١) ».

وهذه الأمثلة التى ذكرنا من نجاح الدراسات التجريبية والتشريحية لجسم الانسان مؤشر طيب لتوفيق الانسان في هذه الناحية أكثر من غيرها من الدراسات وقد أكد الفهم القرآني للآيات التى تتحدث عن الانسان صحة هذه النتائج وليس غريباً أن تجد اشارات في أقوال المفسرين القدامى تنطق بذلك وان كان علماء التشريح لم يقفوا عليها أول الأمر.

ولا أريد بذلك أن أتحدث عن صلة القرآن بهذه الدراسات أو صلتها هي به، فذلك أمر يحتاج الى بحث مستقل، ولكنى أردت أن أشير الى أن نجاح هذه الدراسات جاء من تصديق القرآن لها. ومطابقتها للواقع الملموس من جانب آخر ولا تناقض فالقرآن والكون بما فيه الانسان آيات لله ناطقة بالحق المبين.

هل وضحت طبيعة الانسان في تصور العلوم لها؟ :

قد يوهم امتداحنا للنجاح الجزئي في الدراسات التى اهتمت بجسم

---

(١) السابق - ١٤١

الانسان. قد يوهم أنها نجحت في تصور حقيقي لطبيعة الانسان يمكن أن يتحدد – بناء عليه – دوره ورسالته ، ولكن الحقيقة أن هذه الدراسات شأنها شأن الدراسات الانسانية بعامة والنفسية على الأخص لم تقدم تصوراً يحتوى كل الانسان بكل طاقاته وكل أبعاده وغلب على كل علم من هذه العلوم طابع الجزئية ومحاولة تفتيت الانسان وحتى حين يحاول البعض الاعتذار عن هذا بأنه لمجرد الدراسة . نرد عليه اعتذاره لأنه لو كان الأمر كذلك لالتقت كل العلوم بكل نتائجها لتضع تصوراً للانسان ، الله يعلم مقدار قربه أو بعده من الحقيقة . لكن ذلك لم يكن ، بل عمل كل علم بمنأى عن الآخر ظاناً أن الانسان هو الجزء الذى يبحث فيه ، ولقد اعترف الدارسون المنصفون لعلم النفس أنه لا يزال بعيداً عن كبد الحقيقة بل ربما أدت بعض بحوثه الى اهانه الانسان والهبوط به الى درك الحيوانية الغريزية ، الأمر الذى جعل علم النفس يتقوقع شيئاً فشيئا حتى صار نفسه داخل المنهج الوصفي للسلوك الانساني ، فهو مراقب للواقع غير قادر على تفهم أسراره وتفسير بواعثه . (١)

وإذا كان المنصفون من دارسى علم النفس وباحثيه قد صدقوا الله وأقروا بالعجز فان لساناً يعبر عن الاتجاه الذى أصاب بعض النجاح يعترف بأن نجاحاتهم هذه لم تحل المشكلة ولم تجل الضباب عن حقيقة الانسان وان كثرت حوله العلوم. « ان التشريح والكيمياء والفسيولوجيا ، وعلم النفس ، والبيداجوجيا (فن التعليم) والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسى لا تلم بجوانب موضوعها كلها

---

(١) أنظر في هذا : سيد قطب خصائص التصور الاسلامى - ٨٥ . طبعة المنظمات الطلابية ١٩٧٨ م وكذا د . مقداد يالجن - د . يوسف القاضى - علم النفس التربوى في الاسلام - ٢٢ - ٢٦ ومحمد قطب : الانسان بين المادة والاسلام - ٢٧ - ٥٥ - ٦١ - ٦٣ .

والانسان - كما هو معروف عند الأخصائيين - أبعد من أن يكون الانسان الجامد فالانسان الحقيقي لا يزيد عن أن يكون رسماً بيانياً، يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم؟ (١) ... انه أى الانسان عبارة عن المواد الكيماوية التى تؤلف الأنسجة واختلاط أجسامنا» انه تلك الجمهرة المدهشة من الخلايا والعصارات المغذية التى درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) جوانبها العضوية. انه ذلك المركب من الأنسجة والشعور التى يحاول علماء الصحة والمصلحون أن يقودوه الى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن ... انه ليس فقط ذلك المخلوق شديد التعقيد الذى تحلله فنوننا العلمية. ولكنه أيضاً تلك التكهنات والميول، وكل ما تنشده الانسانية من طموح. ومن ثم فان فكرتنا عن الانسان تختلف تبعاً لاحساسنا ومعتقداتنا» (٢)

وليس معنى هذا أن هذه العلوم لا تملك كثيراً من الحقائق عن الانسان، بل انها تملك كنوزاً من الحقائق حوله، ولكن هذه الكنوز لم تزد على أنها فهم لجزء من أنفسنا فقط «أننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا .. فكل واحد منا مركب من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة.

وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب. لأن هناك مناطق غير محدودة في حياتنا الباطنية مازالت غير معروفة» (٣).

---

(١) تأمل غموض العبارة لتفهم مدى التخبط الذى يعانيه كل أصحاب هذه التصورات.

(٢) الانسان ذلك المجهول - ١٦، ١٧

(٣) السابق - ١٨

وقد أدرك صاحب هذا الاعتراف خطأ وقع فيه العلماء منذ عصر النهضة فقد حبسوا الانسان داخل كونيات خلقها علماء الطبيعة والفلك ، لكنها مع ضخامتها ماديات لا تتسع لهذا الانسان لأنها تتعامل مع جزئه الخارجى أما داخله فنحن لسنا موجودين فيه .

ويذكر هذا الباحث ما يكاد يقترب من الحقيقة الاسلامية عن الانسان حين يذكر أن هذا الانسان عبارة عن شئ مادى ، كائن حى ، وبؤرة نشاط عقلى في وقت واحد . (١)

هكذا تثبت كل هذه الاعترافات موقف العلوم من محاولة رسم صورة لطبيعة الانسان ينبنى عليها تصور دوره وأبعاد رسالته في الحياة . ولعل هذه الاعترافات – وهى من أصحاب هذه العلوم – وذكرها هنا من صميم المنهج العلمى حيث نأخذ آراء الناس من كلام أصحاب الرأى المخالف لهم كما أن ذكر هذه الاعترافات قبل أن نذكر التصور الاسلامى للانسان كطريق لتحديد دوره ورسالته يجعل النقلة طبيعية حيث أنه مادامت العلوم جميعها لا تملك أن تقدم تصوراً عن الانسان يرقى الى مرحلة اليقين ، وينأى بنفسه عن التجريح فاننا لابد باحثون عن مصدر آخر لهذا التصور لا يكون في العلم بالقطع ، ولكن يكون في الدين . والدين عند الله الاسلام . فلا طريق الا ان نبحث عن التصور الاسلامى للانسان كى ننقذه من براثن الحيرة التى تستبد به وهو يبحث عن ذاته .

الاسلام وطبيعة الانسان

بعد أن ثبت قصور العلوم – وباعترافها هى – عن ادراك حقيقى

---

(١) السابق - ٣٥٧ ، ٣٥٨

لطبيعة الانسان ، غدا ضرورة أن يبحث لنفسه عن بيان حقيقي لطبيعته ليدرك دوره وينتشل نفسه مما يعاني من قلق واضطراب ، ولن يرضى الانسان هذه المرة بتصور بشرى يتسم بالنقص ويحتاج الى التطور . وانما يرضيه أن يجد تصوراً مبرأ من قصور نظرات البشر في علومهم ولن يكون ذلك ـ بطبيعة الحال الا في تصور رباني يخالف في أصل تكوينه وفي خصائصه تلك التصورات البشرية ، ومن ثم لا يحتاج في ذاته الى التطور والتغير ، فالذى وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان . ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور . ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات . ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها ، في جميع زمانها وأطوارها .. أصلاً ثابتاً تتطور هى في حدوده وترتقي ، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الاطار » (١) ولن يجد الانسان ضالته هذه الا في الاسلام دين الله الذى ارتضاه للناس مستوعباً كل ما سبقه من مراحل الاعداد للبشرية ، وتقتضى هذه الخاصية فيه بألا يقبل دين غيره في الدنيا ولا يصير لغير معتنقه جزاء في الآخرة على أى عقيدة تكون « **ان الدين عند الله الاسلام** » (٢) « **ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** » (٣) .

وحاجة الناس الى عقيدة في الانسان والانسانية تحتم عليهم أن يأخذوها من الاسلام بعد أن عجز غيره عن تقديمها علوماً أو مذاهب فكرية أو عقائد مشوهة ، فليست مذاهب الفكر البشرى بأسعد حالاً ولا أكثر توفيقاً من علوم الانسان . فالمادية التاريخة تنظر الى الانسان على أنه عملة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة . تخضع بالضرورة ـ

---

(١) سيد قطب ـ خصائص التصور الاسلامى ـ ٦٦ ، ٦٧ ..
(٢) آل عمران ـ ١٩
(٣) آل عمران ـ ٨٥

لقانون العرض والطلب » وأما الانسانية فقد انصتت الى المادية التاريخية فقالت لها : انها شئ لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور » (١) .

ولم تكن الفاشية بأكثر وضوحاً ولا تكريماً للانسان من المادية فالانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وأبناء الانسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد عبد للسيد المختار بغير اختيار .

أما النزعة العقلية فقد قررت الانسانية وهم من أوهام الذهن . وأن الشئ الموجود حقاً هو الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقاً أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث (٢) .

وما سمعه الناس من أهل العقائد الالهية (أعنى العقائد السماوية التى حرفها الناس) عن الانسان ومكانته من الأرض والسماء لا يختلف كثيراً عما سبق ، فصحيح أن الانسان في نظر هذه العقائد روح وجسد لكنه ينجو شطر بمقدار ما يهلك شطره الآخر .

وقد سمع الناس أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره . ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر

---

(١) العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٢٢٠

(٢) الانسان في القرآن/٢٢١

من الأقدار لا تصيب له فيها من عصيان أو طاعة . ومن اباء أو اختيار . (١)

لكن البشرية تسمع – ان عقلت – من القرآن غير هذا فتفهم أن الانسان في القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وما سمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ولا تدركه الأبصار والأسماع . والانسانية من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة . لها نسب واحد ، واله واحد ، أفضلها من عمل حسناً ، واتقي سيئاً . وصدق النية فيما أحسنه واتقاه . (٢)

اذن لابد للبشرية أن تعلم أن طبيعة الانسان في نظر الاسلام طبيعة بها ازدواج ضروري ، ففيها حقيقة الروح السماوية السامية . وفيها حقيقة المادية الأرضية « **وبدأ خلق الانسان من طين .. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** » (٣) **فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** » (٤) .

وقد نتج عن طبيعة هذا التركيب العجيب غرائز وصفات ترجع بعضها الى الطبيعة الروحية وترجع بعضها الى الناحية المادية ، وترجع بعضها الى خاصية هذا التركيب ومن ثم فاننا نجد هنا صفات أكثر من حجم التركيب بكثير ، وليس هذا من الناحية الواقعية ، في ميدان التركيب الطبيعي ، اذ أننا نجد في هذا الميدان أن الكل ليس مجرد مجموع أجزائه ، بل قد تكون هناك صفة أو صفات زائدة تنشأ من

---

(١) السابق - ٢٢٢
(٢) السابق - ٢٢٢
(٣) السجدة - ٧ - ٩
(٤) الحجر - ٢٩

تركيب أجزاء معينة فالماء مثلاً يتركب من الأيدروجين والأكسوجين وبالرغم من ذلك فهو في شكله وخصائصه العامة مختلف عن مجموع وخصائص هاتين المادتين ولو حللناه الى مادتين يفقد الماء طبيعته ، ولا يبقى هناك ماء . وهذه فكرة انتهت اليها الدراسة الحديثة . (١)

ولعل أهم ما يميز نظرة الاسلام الى الطبيعة الانسانية أنه يأخذ الكائن البشرى على ما هو عليه لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته كما تصنع النظم المثالية ، والانسان في نظر الاسلام كائن لا هو بالملاك ولا هو بالشيطان وان كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصل الى درجة الشيطان من الشر ، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه الى مستوى الملائكة من الطهر .

ويعترف الاسلام بمكونات هذا الكائن . فهو يقدر أن في الانسان جسماً وعقلاً وروحاً ولكل مطالبه ويجب الاستجابة اليها مباشرة دون مواربة أو انكار . ويعترف الاسلام للجسد بخصائصه ونوازعه الفطرية وهى الشهوة الجامحة التى لا تهدأ ولا تكف ويعطيه حق حفظ الحياة على الأرض بالمحافظة على ذاته ونوعه ويقر أن يتحقق هذا أو ذاك بالطعام والشراب وبالنسل والاكثار . وقد شاء الله أن تكون مطالب الجسد لها صفة العنف والالحاح ، ولذا ينظم الاسلام اشباعها ، بضوابط وقوانين تنمى الانسان ولا تظلم الحياة . وشاء الله أن يكون العقل طريقاً لأفضل الوسائل التى تستجيب للنوازع الفطرية والتغلب على عقباتها بروية وتدبر ، ثم كان له أن ينزع للمعرفة وكأنها في ذاتها هدف مقصود به ترقي الحياة وتتقدم .

---

(١) مقداد يالجن - علم النفس التربوى في الاسلام - ص ٢٨ ، ٢٩

وشاء الله كذلك أن تكون الروح - التى لا يؤمن بها الماديون - احدى وسائل ارتفاع الانسان بالحياة ثم هى تتصل بالقوة الخفية في هذا الكون فتستلهم منها النور الذى لا تراه الحواس ولا يدركه العقل ولكنه موجود بالرغم من ذلك . وبهذا النور العلوى تستطيع الروح أن تسمو . فتعاون الكائن البشرى على تحقيق هدف الحياة من الارتفاع . (١)

ولا يرى الاسلام وهو يقر هذه القوى على وجودها مثلما رأى غيره من الانفصام بينها فالذات الانسانية أعم من هذه القوى . (النفس والعقل والروح) حين يذكر كل منها على حدة .

« ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الانسانية وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول . فالانسان يعلو على نفسه بعقله أو يعلو على عقله بروحه . فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية . ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله » (٢) - (٣) .

وبعـــد :

تلك كانت محاولات علوم الانسان لاكتشاف حقيقة هذا المخلوق

---

(١) محمد قطب ـ الانسان بين المادية والاسلام ـ ٨٠-٨٤ .

(٢) العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٢٤٩ .

(٣) لم نرد أن نبسط القول في بيان طبيعة الانسان في الاسلام لأن ذلك سيتضح من خلال المباحث التالية بصورة تشفي الغليل ان شاء الله . هذا من جهة ومن جهة أخرى لم نرد أن نغرق في آراء الفلاسفة والمتكلمين حول خيرية أو شرية هذا الانسان

ولم تظفر محاولاتها تعريفه أو بيان طبيعته بنجاح يذكر . الأمر الذى قضى على نتيجة هذه المقدمات وهى تحديد دور هذا الانسان في الحياة - بالفشل أو العجز والقصور . وغدا ضرورة منهجية لصالح قضية الانسان أن نأخذ حقيقة هذا الكائن من دين الله الذى خلق الانسان وهو أعلم به .

وهنا لابد أن نلفت النظر أن كثيراً ممن عالجوا حقيقة الانسان في الاسلام ركزوا بحثهم . وجل اهتمامهم على مظاهر تكريم هذا المخلوق . وكيف أن الله جمله في خلقه . وسخر له الكون . ومنحه العقل . وحرية الاختيار . وحباه بارسال الرسل وكل هذا حق لا محالة . لكن التركيز على هذا الجانب ظلم لحقيقة الانسان . فالانسان في الاسلام هو الكائن المكلف المسئول الذى حمل الأمانة . وخلق للخلافة والعبارة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذه السمات هى حقيقته وكنه طبيعته . لذا فلابد من البدء بكونه مسئولاً . ولابد من فهم الصلة بين التكريم الذى يخلب الأبصار وبين المسئولية التى تنوء بحملها الجبال . وفهم هذه الصلة بايجاز يحدد لنا الطريق الذى يحقق الانسان فيه انسانيته ويبين كذلك أن الاخفاق في هذه المهمة ينحى عن الانسان صفة الانسانية حتى ولو بدا للناس في شكل انسان ينطق ويتحرك . وسوف نتبين أيضاً كم يكون الخير الذى يعود على الحياة حين ينطلق الانسان من منطلق المسئولية التى جاء التكريم تمهيداً لها واعداداً . والعكس صحيح . ومع ايماننا بأن الانسان مسئول ثم مكرم من أجل مسئوليته . فانا سنبدأ الحديث عن مظاهر تكريم الله للانسان لأنها ملموسة وقريبة الى النفس من جهة ولأنها تأخذ بيدنا الى بداية منطقية للحديث عن المسئولية حيث تلقي سؤالاً حول التكريم والتميز لهذا المخلوق دون سائر مخلوقات الله . ومحاولة الاجابة عليه هى نص في المسئولية التى هى حقيقة الانسان .

الفصل الثاني

الإنسان مخلوق مكرم من الله

تكريم الله للانسان :

من طبائع الأشياء أن تحمل الصنعة صفة الصانع ، وتعالى الله عن أن تحكمه فهموم البشر وتصوراتهم ، لكنه سبحانه أخبر عن نفسه بأنه القادر ، الحكيم ، الخبير ، فجاء خلقه يحمل سره وأمره ، فلن تجد في عالم الخلق بكل ما يحوى من الذرة الى المجرة ، لن تجد الا ما أخبر به سبحانه عن خلقه واحكام صنعته ، من تقدير وتنظيم واتزان وترتيب واحكام ، وفي كل هذا يلمس العقل السليم أثر رحمة الله بعد قدرته وما حاوله العلم خلال رحلته الطويلة في استكشاف بعض قوانين هذا الكون انما جاء دليلاً جديداً على صدق ما جاء به القرآن ونزل على الرسول الكريم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . (١)

وهذه بعض الآيات التى تتحدث عن خلق الله يقول سبحانه :

« انا كل شئ خلقناه بقدر » (٢)

« وخلق كل شئ فقدره تقديراً » (٣)

« وكل شئ عنده بمقدار » (٤)

---

(١) نديم الجسر ـ قصة الايمان ـ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ . الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م منشورات المكتب الاسلامى ببيروت

(٢) القمر ـ ٤٩

(٣) الفرقان ـ ٢

(٤) الرعد ـ ٨

« **صنع الله الذى اتقن كل شئ** » (٥)

« **الذى أحسن كل شئ خلقه** »(٦)

« **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** » (٧)

وهذه الآيات تؤكد أن خلق الله للأشياء محكوم بقضائه هو وتقديره سبحانه . وأن الصفة الغالبة والحاكمة لوصف كل مخلوقات الله هى الاحكام . والابداع . والاتقان بما تتناسب هذه المعاني وقدرة الذات الالهية وحكمتها واحاطتها بكل شئ علما . فاذا جاء القرآن بعد اثبات هذه الحقيقة ليقرر تكريماً صريحاً للانسان في خلقه . وفي تسخير الكون له . وفي هدايته بالرسل حتى لا يضل العقل أو يشقى الانسان . أقول حين يقصد القرآن الى هذا قصداً فانما هو التكريم الالهى للانسان الذى يتطلب شكراً وبصراً بما من اجله كان هذا التكريم .

وقد تناول القرآن هذا التكريم في مناسبات عدة . وبأساليب متنوعة . وكلها يعطى دلالة أكيدة لمركز هذا الكائن ومسئوليته في الحياة .

فقد جاء التكريم باللفظ العربي الدال على ذلك . مقروناً بلفظ التفضيل على كثير من خلق الله . يقول سبحانه : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (١) .

---

(١) السجدة - ٧

(٢) ... - ٣

(٣) لاسراء - ٧٠

ويبرز في الآية (كرمنا) تضعيف كرم أى جعلنا لهم شرفاً وفضلاً. كما يقول القرطبي وهذا هو كرم نفي النقصان لاكرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة. وحسن الصورة. وحملهم في البر والبحر مما يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بارادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم من المطاعم والمشارب.

ويذكر القرطبي مناحى للتكريم ذهب اليها العلماء والمفسرين، كالنطق والتمييز، واعتدال القامة وامتدادها، وحسن الصورة، وتسليطهم على سائر الخلق وتسخيرها لهم. والكلام والخط. والفهم والتمييز. وغير هذا من مظاهر التكريم التى رأى العلماء فيها هذا المعنى.

ثم يقول: «والصحيح الذى يعول عليه أن التفضيل انما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل الى نعيمه، وتصديق رسله، الا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين. فاذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء» (١)

واذا كان الامام القرطبي يركز على العقل لأنه سر التكليف. فان الحق أن النص يتسع لكل ألوان التكريم التى أشار اليها المفسرون. بدليل الآيات التى تفصل القول فيما ذهبنا اليه. ببيان صور عديدة للتكريم كما سيجئ ان شاء الله.

---

(١) القرطبي - تفسير الجامع لأحكام القرآن - المجلد الخامس ص ٢٩٤ نشر المكتبة العربية مصر ١٩٦٧ م

ولا ينهى الامام القرطبي تفسيره لهذه الآية حتى يبين أنه ليس بلازم من الآية تفضيل الملائكة على الانسان لأنهم خارجون أساساً من الكثير المفضول ، والآية تعدد نعم الله على بنى آدم مما اختصهم به دون سائر الحيوانات . وأما الجن فهو الكثير المفضول : « **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (١) .

من هنا كان الانسان ـ بجنسه ـ مخلوقاً مكرماً على سائر الخلائق في الأرض مستخلفاً من الله ، محفوفاً بالرعاية وتهيئة الحياة له . « ومن ثم فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو على قيمة هذا الانسان ، أو تهدد من أجلها قيمته » (٢) .

واذا كنا نرى عموم التكريم كما جاء به اللفظ القرآني فانا من خلال نصوص القرآن نرى أن مظاهر هذا التكريم **تبدت في مكونات الانسان ذاته** وهى تشمل : الخلق والتسوية ، والعقل والارادة الحرة . **كما تبدت في تهيئة الحياة للانسان** وتيسيرها لأدائه دوره ، **وفوق كل ذلك كان التكريم بارسال الرسل** لترشيد مسيرة الانسان وتعامله مع هذا الكون .

(أ) في مكونات الانسان ذاته

لعل أبرز مظاهر التكريم الالهى للانسان كانت في حديث القرآن عن خلقه ، وما تناول القرآن خلق كائن من مخلوقات الله بنفس التفصيل الذى تناول به خلق الانسان ، ولعل هذا ـ الى جانب دلالته

---

(١) السابق ـ ٢٩٥

(٢) سيد قطب ـ خصائص التصور الاسلامى ـ ١٢٤

في التكريم ـ كان واحداً من الأسباب التي حفزت العلماء الى عديد من الدراسات للوصول الى ما يمكن الوصول اليه من أسرار ذلك الكائن العجيب . ونحن في معالجتنا لهذه النقطة ننطلق من فهم مؤداه أن هذا الانسان مكون من جماع الجسم والعقل والروح أو النفس ، وأن ذات الانسان كانسان شئ زائد على هذه الأجزاء كما سبق أن أشرنا ونحن نتناول بيان الاسلام لطبيعة الانسان . لكن توضيح مظاهر التكريم الالهي في خلق الانسان يقتضي تجميع النصوص والفهوم الدالة على كل جزء من الانسان ومجموعها يكون في ذهن المسلم ما أبرزه القرآن من تكريم . ووفق هذا الفهم نعرض مظاهر تكريم الله للانسان كما يلي :

١ - الخلق والتسوية والمدركات الحسية .

٢ - العقل كسر للتكليف .

٣ - حرية الارادة كشرط أساسي للمسئولية .

١ الخلق والتسوية :

في مجال خلق الانسان تتحدث آيات عن رعاية الله له جنيناً ، في ظلمات ثلاث ، وتفصل بعضها مراحل خلقه ، وحفظ الله له في قرار مكين . كما تتحدث آيات أخرى عن حسن الخلق والتصوير ، وتذكر حواس ضرورية للانسان وفي كل ذلك يلمح التكريم الالهي للانسان :

يقول سبحانه : « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** » (١)

---

(١) المؤمنون ـ ١٢ ـ ١٤

« ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون » (١) .

« هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء ... » (٢) .

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » (٣) .

« هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض ، واذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » (٤) .

« واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٥) .

هذا ما يقوله القرآن في أمر خلق الانسان ، في ظلماته الثلاث ، ومراحله من تراب الى نطفة الى علقة الى مضغة ، الى عظام يكسوها لحم . فماذا تقول محاولات العقل البشرى في تفهم هذا الأمر؟ وهنا نقول أن المفسرين حاولوا ـ قدر ما فتح الله عليهم ـ أن يوضحوا معاني ما جاء في القرآن ، فكانت لهم أفهامهم التى تفسر من خلاله الفاظ

---

(١) المرسلات ـ ٢٠ ـ ٢٣
(٢) آل عمران ـ ٦
(٣) الزمر ـ ٦
(٤) النجوم ـ ٣٢
(٥) الحجر ـ ٢٨ ـ ٢٩

القرآن . فحين يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ، **قال قتادة والسدى . نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً . ثم لحماً** ، . ابن زيد : (خلقاً من بعد خلق) خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم . وقيل في ظهر الأب . ثم خلقاً في بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردى . (في ظلمات ثلاث) ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة . قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير . ظلمة المشيمة . وظلمة الرحم . وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل ظلمة صلب الرجل . وظلمة بطن المرأة . وظلمة الرحم . وهذا مذهب أبي عبيدة . أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . (١)

وكأني بكل عقول المفسرين للقرآن تنطق بما تدل عليه آية منه . وهى في لفظها أوضح من كل محاولات التفسير « **هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء** » .

وفي محاولة لتقريب معاني الرعاية الالهية للانسان جنيناً . يأخذ العلم في بيان بعض صفات هذه المرحلة . فما الذى يقوله العلم : بيضة مثل بيضة الدجاجة ولكنها أصغر منها بكثير . قطرها يتراوح بين جزء وجزئين من : ٢٤٠ جزءاً من القيراط . أى جزء أو جزئين من عشرة أجزاء من المليمتر ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام . وفيها (مح Cytoplasme) وفي المح (الحويصلة الجرثومية Novau) التى يبلغ قطرها جزء من (٧٠٠) جزء من القيراط .. وفيها

---

(١) عرصى - محمد شمس ص ٢٣٦ تفسير سورة زمر .

تكمن النقطة الجرثومية (Nucleole) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط ... هذه البيضة في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الالبوميني .. فاذا نمت هذه الحويصلة وازداد السائل الذي في باطنها يتمدد غشاؤها ويرق ، ثم ينفجر وتخرج البيضة منها ومن البيض كله .. فالى أين تذهب ؟ انها على موعد مع العشير الذي تحلم به من غير أن تعرفه ولا يعرفها ، فهي تسعى اليه وهو يسعى اليها ويتلاقيان في الطريق ثم يسيران متعانقين ، متزاوجين ، الى بيت الزوجية الأمين المهيأ لها ليصنعا فيه من نفسيهما بشراً سويا » (١) .

وفي هذه المرحلة الدقيقة من حياة هذا الكائن « الانسان » تتشكل وتتخلق قدرات هذا الانسان « **ثم أنشأناه خلقاً آخر** » وهنا يحاول العلم أن يقدم بعض العبارات علها تخدم في فهم هذه الرعاية الالهية للانسان : « وثم ظاهرة غريبة تحدث في الجنين ، تلك أن العقل يجعل جزءاً منه (كذا) العصب البشرى وشبكية العين ، وتطلق الاحساسات المختلفة نحو سطح الجسم ، كما يتعرض جزء الجلد الذى يغطي الشبكية الصغيرة لتعديلات مدهشة ، اذ يصبح شفافاً . ويكون القرنية والعدسات الشفافة ، التي نطلق عليها (العين) وهكذا يمكن العقل من تسجيل الموجهات الكهربائية ، المغناطيسية التي تتراوح فيما بين الحمراء والبنفسجية ، وهناك شعيرات عصبية لا عداد لها تشع من هذه الأعضاء وتربطها بالسلسلة الفقرية والمخ . وعن طريق هذه الأعصاب ينتشر الجهاز العصبي مثل شبكية العين ، فوق سطح الجسم كله حيث يتصل بالعالم الخارجي وتتوقف نظرة الانسان للعالم على تكوين أعضاء الحس ودرجة حساسيتها » (٢) .

---

(١) نديم الجسر - قصة الايمان - ٣٧٩ ، ٣٨٠

(٢) الكسيس كاريل - الانسان ذلك المجهول - ٨٣

ولا نذكر محاولة العلم هذه الا دليلاً على أن عظمة الخلق ، وكريم الرعاية الالهية حثت العقل البشرى على أن يفصل القول - من خلال تجربة واجتهاد - في كيفيات هذا التكريم وان كانت في الحقيقة لم تصل الى بيان حقيقة كيفية تكريم الله للانسان وقدرته على ذلك ، بقدر ما أشبعت فضولاً لدى الانسان يرضى به غروره ، ويقنع به نفسه .

التسوية والنفخ

وحين يحاول العقل البشرى أن يتناول التسوية ونفخ الروح والأمر بالسجود يتناولها مع اختلاف مداخل الناس ، لكنهم في مجموعهم يتوهون في دلالة الألفاظ ، وربما اكتفوا بهذا ، فيقول بعض المجتهدين أن النفخ اجراء الريح في الشئ والروح جسم لطيف اجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم ، وحقيقته اضافة خلق الى خالق ، فالروح خلق من خلقه اضافة الى نفسه تشريفاً وتكريماً كقوله (**أرضي وسمائي وناقة الله ، وشهر الله ومثله « وروح منه »** ... والنفس والروح اسمان لمسمى واحد « **فقعوا لله ساجدين** » أى خروا له ساجدين ، وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ولله أن يفضل من يريد ... » (١)

ولعلنا نلحظ لأول وهلة أن الامام القرطبي لم يتعرض لبيان كيفية التسوية أو النفخ الالهى وهذا ما يجب أن يعرفه كل مسلم فلا ينساق الى التخمين ويذكر أن التسوية الالهية هى اتقان كما تتقن أعمالنا . وأن النفخ في خلق آدم من الطين كالنفخ عندنا بالأفواه وأن طينة آدم كطينة التمثال الطيني يصوره المثالون . ذلك لأن أعمال الاله جل وعلا تنزهت

---

(١) القرطبي - المجلد الخامس - ٢٤ تفسير سورة الحجر

عن مشابهة الأعمال الآدمية وعن كل عمل محدود من أعمال المخلوقات .

والأمر كذلك بالنسبة للروح . فليست بالقطع الروح الانسانية . وليست بالكيفية التى تحددها القواميس والمعاجم لأن روح الانسان المخلوق مجهولة يعلمها الله وحده كما نفهم من آيات القرآن .

وعليه فان محاولة تحديد وقت للتسوية أو النفخ انما هو ضرب من التخمين يجب أن ينأى عنه المسلم « وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة في الطين وسوى الطين وخرج منها آدم عليه السلام . ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية التسوية والنفخ والخلق يلغى كل ما عداها . وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتاً محدوداً باللمحة أو اليوم أو الدهر . ويكون بمقدار واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار . (١)

وهنا يجدر بالمسلم أن يعى أن كلمة الروح وردت في القرآن بأكثر من معنى وقد كان نفخ الروح من قبيل ولادة عيسى عليه السلام « **انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه** » (٢) وكان من آياته أن يتمثل لها بشراً سويا . « **فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا** » (٣) . وكان الروح وحياً ومصدراً للوحى « **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** » (٤) . **كما كانت سراً محجوباً على علم بنى آدم في جميع هذه الأحوال (٥) وهكذا يجب أن**

---

(١) العقاد - الفلسفة القرآنية - ١٩٧ - ٢٠٠
(٢) النساء - ١٧١
(٣) مريم - ١٧
(٤) الشعراء - ١٩٣ ، ١٩٤
(٥) العقاد - السابق ١٩٩

يعرف العقل قدره . وحسبه أن يفهم من معنى التسوية منسوبة الى الله سبحانه « فاذا سويته » ونفخ الروح منسوباً اليه سبحانه « ونفخت فيه من روحى » والأمر للملائكة بالسجود لهذا الجزء الالهى في الانسان . حسبه أن يفهم من هذا ومن مراحل الخلق والتكوين تكريماً يوجب الشكر . ويقضى بالمسئولية .

وصوركم فأحسن صوركم

وهناك آيات عديدة تتحدث عن خلق الانسان بعامة . وأن الله صوره . فأحسن صورته . وفيها معنى التسوية الالهية وقدرة الخالق سبحانه . فكل آيات الخلق تنطق بأنه سبحانه خلق فسوى . وقدر فهدى . وصور الانسان على خير وجه .يقول سبحانه .

« **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم** » (١)
« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك** » (٢) .

« **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم** » (٤)

« **الذى أحسن كل شئ خلقه . وبدأ خلق الانسان من طين** » (٥)

---

(١) التغابن - ٣
(٢) الانفطار - ٧
(٣) التين - ٤
(٤) الأعراف - ١١
(٥) السجدة - ٧

واذا كانت الآيات السابقات تحدثت عن مراحل الخلق الجنيني وما بها من الخفاء فان هذه الآيات وما يماثلها مما لم نذكر تبرز العناية الالهية بشكل الانسان وتركيب أعضائه وتناسقها بما يمكنه من أداء دوره الذى أراده الله له . فهي تفيد أنه سبحانه « **صوركم فأحسن صوركم** » أى حسن أشكالكم كقوله تعالى « **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك** » (١) .

وقوله تعالى : « **الذى خلقك فسواك فعدلك** » أى جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال (٢) وهو نفس المعنى لقوله « **في أحسن تقويم** » وقد اتسعت دلالة ألفاظ حسن الخلق والتصوير « **أحسن تقويم** » لتشمل كل ما من شأنه أن يسهل للانسان أداء دوره . فاعتدال القامة . والقدرة على العمل والارادة والعقل والفطنة والجمال . كل هذه معان وان تبدت مركزة على خلق جسد الانسان فانها توحي الى هذا المخلوق المسئول أن خلقه اعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية . وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع . (٣)

وقد استحثت هذه الحقائق القرآنية فضول العقل البشرى فراح يجرى بحوثه ويعقد تحليلاته ليبرز ما في جسم الانسان من عجائب . فقررت هذه البحوث أن الجسم البشرى حافل بالعجائب . فبالرغم من

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ المجلد الرابع ص ٣٧٤ طبعة دار الفكر
(٢) السابق ـ ٤٨١
(٣) العقاد ـ الانسان في القرآن ـ ٢٣٠

أن مجرى الحياة فيه واحد الا أنه يحوى دولاً متنوعة عن طريق الفروع التى تأخذ من هذا المجرى الواحد . كما قررت تكيف هذا الجسم وتواؤمه مع أشق الظروف المعاكسة له ، ولعل هذا لم يحظ به غير الجسم الانساني وان كان هناك ما يفوقه ضخامة وشراسة من الحيوانات .

كما قرر أن هذا التكيف الضرورى لحياة هذا الانسان والميسر لتنقله ليؤدى دوره في عمارة الحياة ، هذا التكيف يقوم به الجسم كله غدده وشرايينه . والجانب العقلى فيه ، ويظهر في هذا الارتباط الشديد بين كل عضو وآخر في أداء مهمات حياة هذا الجسم مما يوضح مدى التكامل في التنسيق الداخلى لهذا الجسم ، ومدى قدرة الله سبحانه في أن الانشغال بهذا التكامل الداخلى لا يعوق حركة التكيف مع الخارج المادى والسيكولوجى ، « وتحت هذين الوجهين تعمل الوظائف التنسيقية في كل لحظة من لحظات حياتنا ... فهى اذن الأساس اللازم لبنائنا » (١) وما نظن أن العلم بكل ما أوتي من توفيق في هذا الجانب قد أضاف شيئاً أوضح ولا أحق من قوله تعالى « **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم** » .

منافذ الادراك

وفي شمول المعنى القرآني لقوله سبحانه « **وصوركم فأحسن صوركم** » . وما في معناها من الآيات . في هذا الشمول اشارة واحتواء لكل ما يحسن به الخلق ، ويستقيم معه أداء المهمة ، ومن هذا منافذ الادراك الحسى والقلبى ولكنا نؤثرها هنا بكلمات ، لنجلى معنى التكريم فيها والتميز فهى وان وجدت نظائرها في الحيوانات فهى في

---

(١) الانسان ذلك المجهول صفحات ٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ٢٢٠ . وأنظر ـ أوجين شريدر ـ نيولوجية الانسانية ص ٦٤ ترجمة د . خليل الجر .

الانسان تعنى شيئاً آخر وتؤدى دوراً مختلفاً الى جانب أهمية وجودها في تيسير الحياة للانسان فضلاً عن تميزها . يقول سبحانه « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » (١) .

« **وهو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** » (٢) .

« **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** » (٣) .

« **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** » (٤) .

« **قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم . وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به** » (٥) .

« **ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين** » (٦)

---

(١) النحل ـ ٧٨
(٢) المؤمنون ـ ٧٨
(٣) الإسراء ـ ٣٦
(٤) السجدة ـ ٩
(٥) الأنعام ـ ٤٦
(٦) البلد ـ ٨ ، ٩

وتلازم هذه الحواس في النسق القرآني يؤكد تكاملها وتذييل معظم آيها بطلب الشكر دليل على أهميتها وضرورة استخدامها فيما خلقت له . ولعل هذا يفهم من الآيات التي ذكرت أن هذه المنافذ ستشهد على الانسان يوم القيامة (١) وأن الله سبحانه يعاقب غير المؤمنين بالطبع على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم (٢) وهما ينزلون عن سمو الانسانية الى درك أضل من الحيوانية البهيمية . (٣)

وهذا ما يقوله فهم الامام القرطبي لمعنى آية من هذه الآيات : قوله تعالى « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** » ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيئ . وفيه ثلاثة أقاويل : **احداها** : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم . **الثاني : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء** . **الثالث** : لا تعلمون شيئاً من منافعكم . وتم الكلام . ثم ابتدأ فقال : « **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** » أى التي تعلمون بها وتدركون لأن الله خلق ذلك لعباده قبل اخراجهم من البطون . وانما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم أى وجعل لكم السمع لتسمعوا بها الأمر والنهى . والأبصار لتبصروا بها آثار صنعته . والأفئدة لتصلوا بها الى معرفته وقد قيل في ضمن قوله « **وجعل لكم السمع** » اثبات النطق . لأن من لم يسمع لم يتكلم واذا وجدت حاسة السمع وجد النطق ... « **لعلكم تشكرون** » فيه تأويلات : **أحدهما** : تشكرون نعمة . **الثاني** : يعنى تبصرون آثار صنعته لأن أبصارها يؤدى الى الشكر » (٤) .

---

(١) نصر فصلت ـ ٢٠ ، ٢٢

(٢) بقرة ـ ٧ ، لنحل ـ ١٠٨

(٣) لأعرف ـ ١٧٩ .

(٤) تفسير لقرطبي ـ مجلد لخامس ـ ١٥١ تفسير سورة نحل

ويحاول العلم أن يتناول هذه الحواس الهامة بالبيان . وان كان بدءاً يقصر همه كعادته على الجوانب الفسيولوجية . فيصف الأذن بأنها الجهاز المعقد التى توجد بها ترتيبات من البوابة الخارجية (الصيوان) الى الصماخ السمعي . الى الغشاء الطبلى الى الأذن المتوسطة . الى الأذن الباطنة الى أعصاب السمع . ويقرر أنه لولا هذه الترتيبات لما أمكن وصول الصوت الى الدماغ بشكل يحتمل أو مفهوم أبدا . فكل هذه الترتيبات انما خلقت وأحكمت لأجل ترقية توزيع الاهتزازات الصوتية على وجه يقوى ضعفها . ويضيف قوتها ليتلقي الجهاز السمعى كل رجة وصدمة . ويشعر الاحساس باللطف نغمة .(١)

كما يتحدث العلماء عن العين بقرنيتها وشبكيتها وجفنها وبؤبؤها وغير ذلك من قدرتها على تلقي الضوء والتكيف معه بما يبين وحده القدرة والمواءمة للدور الذى يجب أن تؤديه العين في حياة الانسان . (٢)

ونفس الشئ يتحدث العلم عن اللسان وكيف أنه الحاسة التى تؤدى وظائف متعددة . فهو آلة الذوق . وآلة المضغ والبلع والهضم . وآلة الحس واللمس وآلة التكلم . وهو من أجل تعدد وظائفه مهئ بحكم خلقة الله القادر له ليؤدى هذه الوظائف مع تعددها دون تناقض أو اضطراب . (٣)

وحديث العلم عن القلب كعضلة تؤدى دوراً هاماً أبسط ما يوصف

---

(١) قصة الايمان - ٣٩٤
(٢) الانسان ذلك المجهول - ٨٣
(٣) قصة الايمان - ٤٠٢

به أنه المصدر الظاهر للحياة الحيوانية التى تضمن استمرار أداء الدم لوظيفته بعد تنقيته واعداده. (١)

فاذا أضفنا الى هذه المهام مهام أخرى لا تقل أهمية عن هذه من حيث أن هذه المنافذ والحواس لها دور غير الفسيولوجى. لها دور مسئول في سماع أمر الله للبشر وفي تأمل وتفحص مخلوقات الله بالنظر البصرى والبصيرة المدركة. كما أن اللسان آلة التبليغ وعضو الحوار والافهام الأمر الذى جعله يعلي صاحبه أو يدنيه فيلقي به في الجنة أو في النار. وكذلك القلب الذى أعتبر مقياساً في الشرع يستفتى حين تبلغ بالانسان الحيرة. وحين لا يجد نصاً فاصلاً فيما يفكر فيه. أقول اذا أضفنا هذه المهام الانسانية الى ما قرره العلم الشارح والمراقب للوظائف الفسيولوجية لهذه الأعضاء كان لنا أن ندرك كم يكون تميز الانسان وتكريمه بهذه الحواس. فضلاً عن ضرورتها بالنسبة لتكيفه مع الحياة. وأداء مهمته في الارتفاع بها. والسمو بالاحياء فيها. وبهذه النظرة نكون قد وضحنا ـ حسب خطة البحث ـ مظهراً من مظاهر تكريم الله للانسان في تكوينه الذاتي وكان هذا الجانب مركزاً على ما يغلب عليه طابع الخلق الظاهر. والحس المدرك. وبقي أن نكمل الحديث عن مظاهر هذا التكريم في مكونات الانسان ذاته حيث العقل ميزة الميزات. وحيث الارادة والاختيار. وفي كل ذلك لا تجزئ الانسان. ولكنا نحاول أن نتفهم ميزاته.

---

(١) نسق ـ ٤١٢

٢ ـ العقل .. ميزة .. ومسئولية

لا يختلف اثنان في أن العقل قيمة كبرى ، وميزة عظمى حتى أن بعض الناس يفهم أن الانسان كرم من أجل العقل لا بالعقل . ولعل هذه القيمة الكبرى للعقل هى التى جعلت الامام القرطبي يعتبر أن التفضيل الذى يعول عليه في قوله تعالى « **وفضلناهم** » انما يكون بالعقل الذى به تتم معرفة الله ، وتفهم كلامه ، وتصديق رسله . ويذكر هذه الأهمية مقرونة بأنه عمدة التكليف ، أقول لعل شيوع هذه الأهمية هو الذى حدا بالامام القرطبي الى هذا الفهم مع أن اللفظ القرآني لا يمنع التفضيل بغير العقل كما حكى هو عن الائمة المفسرين . (١)

وقد اعتبر الراغب الاصفهاني أن العقل ميزة للانسان في نفسه . الى جانب ميزات أخرى في جسمه « للانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه ، أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التى بها العلم . والعقل والحكمة والتدبير والرأى فان البهائم وان كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ، ولا روية ، ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها ، وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية .. » (٢)

وقد ذكر أن للعقل ميزة أنه يهدى الى الفضائل وينفر من الرذائل . ويعرف الخير من الشر وان كان يرجع الحكم في نهاية الأمر الى الشرع . ومن هنا قالت الحكماء : من لم يكن عقله في أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه » . (٣)

---

(١) تفسير القرطبي ـ ٢٩٣ المجلد الخامس تفسير سورة الاسراء .
(٢) الراغب ـ الأصفهاني ـ الذريعة الى مكارم الشريعة ـ ١٥ الطبعة الثانية ١٣٠٨ هـ مصر .
(٣) السابق ـ ٥٣ ، مقداد يالجن ـ الاتجاه الأخلاقي في الاسلام ـ ١٧١ ـ الخانجى بمصر ـ ١٩٧٣ طبعة أولى .

واذا كان العقل وازعاً يعقل صاحبه عن الشر ويقلب النظر ويوازن بين الأشياء . وهو كذلك رشد يميز بين الهداية والضلال . وأخذ من الماضي للحاضر يعي ويتدبر أقول واذا كان كذلك . فانه « موصول بكل حجة من حجج التكليف . وكل أمر بمعروف ونهي عن محظور .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا يتذكرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر السماء والأرض ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء لأنهم « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك » (١) « **أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق** » . (٢)

والعقل بهذه المعاني ، وهذه المهام ميزة تميز الانسان عن الحيوانات كلها ومسئولية تقوده الى ما خلق من أجله . وهو واسطة بين النفس التي تتصل بالغرائز . وبين الروح التي تتصل بعالم البقاء وسر الوجود الدائم الذي علمه عند الله . وكأنا بالعقل أداة ذات حدين وفي غالب أحوالها اذا استقامت تحكم النوازع وتقود الى الخير (٣) .

---

(١) آل عمران - ١٩١

(٢) الروم - ٨

(٣) العقاد - لانسان في القرآن - ٢٣٣ - ٢٤٩ . عبدالكريم عثمان - معالم الثقافة الاسلامية - ١٨

العقل والشرع

نذكر بأن الامام القرطبي حين اعتبر العقل هو التفضيل الذي يجب أن يعتبر دون ما عداه . ذيل هذا بعبارة هامة هي : « الا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين فاذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس . وأدركت تفاصيل الأشياء » (١) فالعلاقة بين العقل وبين الشرع علاقة تكامل لأن المنطق أن الشرع الذي جاء في القرآن يحتاج الى عقل يتفهمه وأن هذا القرآن هو الذي أورد آيات الحث على النظر والتفكير والتدبر والاعتبار - ومعناه أن هناك صلة بين العقل والشرع هي صلة أن كليهما أثر من آثار الخالق سبحانه وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها » (٢) .

ولا يفهم من هذا أن العقل ند للشرع فالأمر غير هذا . اذ الشرع جاء ليكون الأصل الذي يرجع اليه . والميزان الذي يزن به العقل قراراته ومفهوماته . وتصوراته ويصحح به اختلالاته وانحرافاته . ويجب أن يعلم العاقلون أن العقل المبرأ من النقص والهوى لا وجود له في دنيا الواقع . وانما هو مثال . (٣)

والعقل بهذا ليس في موضع النفي أو الاهانة . بل هو في موضع التكريم حيث لم يكلف فوق طاقته . ولم يطلب اليه الضرب في مجالات يعلم اخفاقه فيها سلفاً . واذا كان تاريخ الفكر الأوربي قد عرف الصراع

---

(١) تفسير القرطبي - مجلد - ٥ - ٢٩٣

(٢) سيد قطب - خصائص التصور الاسلامي - ٢٩ .

(٣) نفس - نفس الصفحة

بين العقل وبين الكنيسة حتى عرف عصر التنوير « بعصر سيادة العقل » فان هذا أمر يخصهم هم وان حاولوا خبثاً منهم أن يعمموا هذا ويروجوا شائعة أن العقل لا يلتقي مع الدين (١) . ذلك أن الاسلام يعطي العقل مكانته في تفهم نصوص الكتاب والسنة وفق منهج يضمن عدم ضلاله أو انحرافه بأهوائه الى حيث لا يريد النص دون أن يغمطه حقه في الاجتهاد فيما ليس فيه نص في حدود الاطار العام للمنهج الاسلامي في الاجتهاد وفي حدود دائرة القياس أو الاستحسان أو مصلحة الأمة . (٢)

وقد حاول ابن طفيل في قصته « حي بن يقظان » أن يبرهن على أن العقل مع قدرته على ادراك وجود الله من خلال آثاره في الكون . مع ادراك هذا يعتريه العجز والكلال حين يحاول الدخول في ميادين فوق طاقته كالأزلية والعدم المطلق واللا نهاية والقدم والحدوث وغيرها .

كما حاول أن يبين أن العقل والشرع يلتقيان عند نقطة واحدة في مجال الحق والخير والجمال . وأن مخاطبة الشرع للناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بالأسرار هي الخير كل الخير للناس ، وأن عليهم الالتزام بهذا الحد وترك التعمق والغلو . (٣)

فموقف الشرع من العقل موقف يتسم بالتقدير ولذا عدت حماية العقل من الضروريات الخمسة في الشرع الاسلامي ، وجاءت حمايته بسد الذرائع الموصلة الى الاخلال به ، فكان تحريم المسكرات وما يحدث بالعقل خللاً ، فشرع حد للخمر ، وتعزير في غيره ، وجعل في

(١) السابق - ١٠٠
(٢) الاتجاه الأخلاقي في الاسلام - ١٧٠
(٣) قصة الايمان - ٧٢

ذهاب العقل بالاعتداء الدية الكاملة ، لأن البشر بدونه أقل من سائر الحيوانات .

« ولم تختلف الديانات السماوية في حرمة المسكرات وما يؤدى الى ضرر العقول ، ولا نكاد نجد الاهمال في أمر العقول الا في الأمم المتخلفة ، أما من أنعم الله عليهم بنور العلم والبصيرة فهم الذين يحافظون على العقول لتأخذ بهم الى السعادة والأمان ولا يقدر النعم الا العارفون بها » (١) .

عقل الحضارة العصرية

يعرف من تاريخ الفكر الأوربي ما يسمى بعصر التنوير ، وهو من النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وفيه علت ثبرة احساس العقل بذاته كرد فعل للتناقضات التى بدت في سلوك الكنيسة في العصر السابق على هذا التحديد ، وحاولت هذه النزعة أن تعطى العقل مصير مستقبل الانسانية فتجعله حكماً في كل قضاياها ليصبح سيداً لا ينازعه غيره الذى كان ينازعه من قبل وهو الدين « الكنيسة » .

وهذا الانفلات من كل قيد ، واعطاء العقل السيادة المطلقة لا يتفق والعقل السليم فضلاً عن التناقض الذى يمكن أن يحدث حين تحكم العقل في كل شئ دون وضع مقاييس يتفق عليها ، وتبقى صحة هذه المقاييس رهناً بعقيدة المفكرين وما أشار اليه الموقف الاسلامى من ضرورة أن يرشد العقل بالوحى ، أحسن بعض الباحثين الأوربيين حين

---

(١) د . عبدالعزيز السعيد ـ رعاية المصلحة ودرء المفسدة ـ ص ٥ بحث ألقي في كلية الشريعة وطبع عى الاستنسل ـ في الجزء الثاني من محاضرات قسم الثقافة الاسلامية بجامعة الامام ١٣٩٩ هـ .

ذكر أن العقل في الحضارة العصرية غائب عن مجال الأخلاق ولذا فان أمريكا مع تقدمها الطبي في بعض ولاياتها يزيد عدد المجانين عن عدد المرضى الموجودين في المستشفيات لأمراض أخرى . وهذا له أثره في التعاسة وتفكك الأسر « ان الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ... ان الصفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصرية هي **الافراط** في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العلمي من الحياة .. كما يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء وأيضاً بنوع من الضعف العقلي الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق » (١) واذا كان هذا هو رأي غير المسلمين فان على المسلمين أن يفكروا مرات قبل أن يدعوا الى عقلانية مطلقة في نصوصنا وقضايانا .

العقل والعلم

لم يستطع العلم أن يحدد ماهية العقل ولا من أي مواد في الجسم يفرز ولا تزال كثير من قوانينه مجهولة عند العلماء وان كانوا يعترفون بأن العقل هو الشيء الذي يميز الانسان عن جميع الحيوانات الأخرى . لكن بقية الأسئلة لاتزال حائرة دون جواب يرضى العقل أو العلم أو هما معاً . (٢)

وليس معنى هذا أن العلم لم يفد بتاتاً في هذا المجال . فقد أفاد حين أضاف حقيقة أن النشاط العقلي لا يزيد في تجدد الخلايا اذ يبدو أنه لا

---

(١) الانسان ذلك مجهول - ٣٤

(٢) لسدق - سيولوجية الانسانية ٧٥

يحتاج الى أى نشاط أو أنه يستهلك كمية ضئيلة جداً منه الى درجة لا يمكن اكتشافها بواسطة فنوننا الحالية بالطبع أن من الحقائق التى تدعو الى الدهشة أن التفكير البشرى الذى غير سطح الأرض .. هذا التفكير البشرى قد بلغ حد الاتقان دون أن يطالب بأى قدر يقاس من النشاط . ان أقوى جهد يبذله تفكيرنا له تأثير تافه على تجدد خلايانا . وهذا التأثير لا يقارن بذلك التأثير الذى يحدثه تقبض عضلة الكتف عندما ترفع ثقلاً يزن جرامات قليلة » (١) نعم يفيد العلم في هذا لأن ورود الفواصل المنتهية في القرآن بما يفيد العقل والتفكير والتدبر . والتذكر وما شابه هذا كثيرة ، وكثرتها قد تبدو للذهن الخامل على أنها نوع من الأرهاق والمشقة . فاذا علم هذه الحقيقة وهى أن العقل وأعماله لا يكلف الجسم شيئاً ربما نهض ، وبالنسبة لغيره من الواعين يدركون مدى مسئوليتنا في عقولنا وبعقولنا في تغيير هذه الحياة الى أفضل مما يعلى شأنها وشأن الأحياء وذلك يكون بتفهم دور المسلم وايجابيته التى اقتضت التكريم بالعقل ليعمل ويعمل ويعمل .

ولعل البحوث العلمية في مجال تأثيره وتأثره بالجسم ، وأنهما وجهان لشئ واحد ، ومدى تأثر هذا العقل بالبيئة ومحتوياتها الثقافية . وما يمكن أن يحدثه التعليم في هذا العقل ، لعل بحوث العلم في هذا الصدد تفيدنا في الاهتمام بالعقل وتربيته ومحاولة اختيار الجو الثقافي الملائم للعقل المسلم . ليتكون من مكونات اسلامية تمنحه قدرته ومنهجه في التفكير أولاً ثم لا عليه بعد هذا اذا خالط غير هذه البيئات للدراسات والتوجيه ، وهو دوره المنوط به مادام هو سر التكليف الذى يقضى بتحمل مسئولية الحياة والاحياء وكل هذا دون أن نغفل جانب تنميته

---

(١) السابق - ٩٩

بالتعليم والمران . وفي هذا كلام جيد تبسطه نظرة الاسلام الى التفكير . وحثه على العلم وموقفه من الاجتهاد وغير ذلك مما يتصل به ولا يتسع المقام هنا لتناوله وبسطه فموضعه بحث مستقل .

وبعد . فهذا هو العقل مظهراً آخر للتكريم في مكونات ذات الانسان وبهذا الجانب يتصل التكريم بالحرية والاختيار وهو نقطة حديثنا ان شاء الله .

٣ حرية الانسان

قضية ولا أبا حسن لها ، هكذا صور الفكر الانساني قضية حرية الانسان وارادته التى تميزه عن سائر الاحياء ، والقي المفكرون بعديد من الاسئلة تتضمن الاستفهام عن هل للانسان ارادة حرة ؟ وهل هذه الارادة تمارس فعلها ام أنها قوة كامنة في النفس كاستعداد فقط ؟

ومحاولة الاجابة عن هذه الاسئلة – من غير استناد الى تصور الهي . أظهر اتجاهات ثلاثة في هذا الصدد :

١ – اتجاه يحرم الانسان من هذه الميزة فهو مجرد من حرية الارادة بالقوة أو الفعل . هو كالريشة في مهب الريح ، وداخل هذا الاتجاه نجد الجبرية من متكلمي المسلمين الذين يرون ان ارادة الانسان بيد الخالق يتصرف فيه كما يشاء .

كما نجد من يرجعون هذا الجبر الى قوة الطبيعة التى تجعلنا كعجلات في آلات كبرى وان بدا في الشكل ان عقولنا تفكر .(١)

---

(١) د . زكريا ابراهيم/ مشكله الحرية/٥٥ نشر مكتبة مصر الطبعة الثانية

٢ – اتجاه يعطي الانسان حرية فاعلة ، ونجد داخل هذا الاتجاه من يفكر في الامر بطريقة عقلية كأرسطو «وكانت» ومن يفكر بطريقة دينية كالمعتزلة من متكلمي المسلمين الذين اعطوا للانسان حريته ليتحمل مسئولية الشر في العالم من جهة وليحمل مسئولية التكليف بعامة من جهة اخرى فجعلوا قدرة العبد مخلوقة لله ثم يخلق العبد الافعال بقدرته هو . (١)

٣ – اتجاه في الفكر الاسلامي حاول ان يقف الموقف الوسط فيقسمون الحرية نصفين يعطون الانسان نصفا هو حرية الارادة اما حرية التنفيذ فليست له فان الله هو الذي يخلق الفعل الذي يختاره الانسان . وفي هذا الموقف نجد الاشاعرة والامام الغزالي وابن مسكويه والماتريدية في حقيقة الامر على اختلاف بعضهم في توضيح الامر وتكييف رأيه الذي اختار . (٢)

واذا كانت هذه البلبلة في هذا الامر سمة في الفكر بعامة . فان الذي أوقع المسلمين في هذه الهوة انهم أثاروا القضية كما وجدت في الفكر اليوناني باتجاهاته ، كما انهم وجدوا في القرآن آيات تعطي المشيئة المطلقة والفاعلة لله وحده ، وآيات تعطي للانسان قدرا من الحرية . وآيات تجمع بين هذا وذاك . فكان أن أخذ كل فريق الآيات التى تسند اتجاهه الذي مال اليه ، ومن هنا صنعوا المشكلة التى سميت بالقضاء والقدر . وولدت مشكلة اخرى هي الخير والشر في هذا العالم .

---

(١) د . مقداد يالجن الاتجاه الاخلاقي في الاسلام/١٩٨ نشر الخانجي بمصر ١٩٧٣
(٢) السابق/٢٠٠

وقبل ان نعرض فهما اسلاميا لهذه القضية نذكر نماذج من الآيات التي اشرنا اليها .

١ - يقول سبحانه :

« ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله يسير »(١)

« قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(٢)

« قل لو كنتم في بيتوكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم »(٣)

٢ - ويقول سبحانه :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(٤)

« بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القي معاذيره »(٥)

« ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه »(٦)

٣ - ويقول سبحانه :

« كلا انها تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا ان يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة »(٧)

---

(١) الحديد/٢٢
(٢) التوبة/٥١
(٣) آل عمران ١٥٤
(٤) الرعد ١١
(٥) القيامة/١٤ . ١٥
(٦) النساء ١٦١
(٧) المدثر ٥٤ . ٥٦

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا . وما تشاءون الا ان يشاء الله »(١)

« أولما أصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم اني هذا ؟ قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شيءٔ قدير . وما اصابكم يوم التقي الجمعان فباذن الله »(٢)

واذا كان بعض المفكرين المسلمين قد قادهم هذا التنوع في الآيات الى حيرة واضطراب وان كان الدافع صحيحا وهو محاولة تنزيه الله عن المثل والشبيه أقول اذا كان هذا قد حدث لما ذكرت من اسباب . فان الباحث لهذا الامر من خلال التصور الاسلامي يدرك سعة مفهوم القدر مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الانسانية في حدود هذا القدر المحيط (٣)

فليست هناك في الحقيقة مشكلة لان قدر الله في الناس هو قدره في كل المخلوقات من حيث خلقه سبحانه لكل خلق وحدث ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال ارادة الناس وعملهم في ذات انفسهم . وما يحدثونه فيها من تغييرات : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »

وكون مرد الامر كله الى المشيئة الالهية المطلقة لا يبطل هذا ولا يعطله . فالامران يجيئان مجتمعين احيانا في النص القرآني الواحد . كما رأينا في المجموعة الثالثة من هذه النماذج .

---

(١) لاسان ٢٩ . ٣٠

(٢) آل عمران ١٦٥ . ١٦٦

(٣) سيد قطب خصائص لتصور لاسلامي ٢٠٧

ونحن انما نفترض التعارض والتناقض حين ننظر الى القضية بتصور معين نصوغه من عند انفسنا عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى وحركة الانسان في نطاقها . الا أن المنهج الصحيح : هو الا نستمد تصوراتنا في هذا الامر من مقررات عقلية سابقة . بل أن نستمد من النصوص مقرراتنا العقلية في مثل هذه الموضوعات وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الالهية في المجال الذي لا دليل لنا فيه غير ما يطلعنا الله عليه منه .

وقد قال سبحانه : « فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » .. كما قال .. « وما تشاءون الا أن يشاء الله » وهو سبحانه الذي يقول « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القي معاذيره » ويقول : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء »(١) . وهو الذي قال في الوقت نفسه : « وما ربك بظلام للعبيد »(٢) فلابد اذن . وفق تصور المسلم لالهه وعدله وجزائه وشمول مشيئته وقدرته من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله . من شأنها ان تسمح للانسان بقدر من الايجابية في الاتجاه والعمل . يقوم عليه التكليف والجزاء دون ان يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الالهية المطلقة . المحيطة بالناس والاشياء والاحداث .

كيف ؟

كيفيات فعل الله كلها . وكيفيات اتصال مشيئته بما يراد خلقه وانشاؤه كلها .. ليس في مقدور العقل البشري ادراكها . والتصور

---

(١) لانعام ١٢٥

(٢) فصلت ٤٦

الاسلامي يشير بتركها للعلم المطلق ، والتدبير المطلق . مع الطمأنينة الى تقدير الله ورحمته وفضله »(١)

وقد ارتضيت نقل هذا النص مع طوله لانه يقدم البداية الصحيحة لتصور الامر على وجه يزيح من عقول الناس أن حرية الانسان مشكلة أو أنها تزاحم مشيئة الخالق سبحانه .

حريتنا واقع وضرورة

هي واقع يراه المثبت لها والمنكر . ويلمسه الناس في التفريق بين افعال تحدث لا ارادة لنا فيها . وبين افعال ارادية نختارها نحن ونتردد مرات ومرات حين نفاضل بين البدائل ، وهذه الافعال الارادية التي يبدو فيها جانب الاختيار واقع انساني ما كانت الحياة كما رأيناها تسير بدونه ، بغض النظر عن كونه ميزة أو غير ذلك ، وبغض النظر عن الخلاف الذي ادير حوله .(٢) وحتى الذين ينكرون حرية الانسان ويقولون ان الله سبحانه خلق للناس الحرية .. أي انه اضطرهم ان يكونوا احرارا مختارين حتى هؤلاء يعترفون بهذا الواقع فانه اذا كان الله سبحانه قد اضطر الناس ان يكونوا احرارا فقد اصبحوا احرارا .. وهذا هو الذي يعنينا من الحرية كيفما كان السبيل اليها .(٣)

وهذه الحرية التي خلقها الله للناس ، ليست كما يظن العبثيون انها مطلقة ، اذ لا يجوز ان يخلق الله للانسان حرية الهٍ فعال لما يريد ،

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ٢٠٨ ، ٢١٠

(٢) الذريعة الى مكارم الشريعة ١٦٧

(٣) [illegible] قرآنية ١١٦٩

وكذلك لا يخلق الله للناس حرية المساواة في الاقدار والاعمال . لان الاول محال والثاني يتعارض به قوام الموجودات في عالم الحدود .

فاذا لم تكن حرية الانسان حرية الهٍ . او حرية فوضى وتناقض لم يبق الا الواقع وهي حرية الحظوظ المختلفة التى نراها في الحياة .
اذن هذا الواقع يشهد له العقل فيلتقي مع الايمان بالغيب الذي يترسخ في النفس لانه وافق الفطرة وحاجة الانسان .(١)

هذا واقعها .. أما ضرورتها فهي :
ان هذه الارادة فارق حاسم بين الانسان والحيوان وبها يتحمل الانسان مسئوليته العظمى وهي مناط النظام الاسلامي كله ، فهي ميزة ميز الله بها الانسان تتواءم مع دوره ورسالته . اذ يستطيع مجالدة نفسه ومجاهدتها ، والاستعلاء على الغرائز المسفة ، بل هو ليس بانسان ، ان لم يعمل على ضبط نفسه وشهواته واذا كان الانسان هو المخلوق الذي يرتقي بالحياة والاحياء من الضروري ان يحظى بحرية وارادة تمكنه من الارتقاء بالانسانية وتحقق اهدافها العليا ، فهي بهذا ضرورة لرقي الحياة والتسامي بالاحياء وفي مقدمتهم الانسان .(٢)

وهي طريق للتكليف وشرط أساسي له ، يبرز فيها ما يحتاجه التبليغ والعلم والعمل كأسس لتكليف ، ولا يتصور مكلف بدون حرية يختار بها ويحاسب على أساسها ويستطيع بها أن يوازن في الهم والعزم والتنفيذ . والانسان بحكم وضعه بين الحيوان الذي لا يعقل وبين

---

(٢) السابق/١٧١ . الانسان في القرآن/٢٥٧
(٣) الانسان بين المادية والاسلام/١١٤

الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم بحكم موقعه هذا يوصف في القرآن بالمتضادات . فهو خليفة في الارض . وهو المكرم والمفضل على كثير من خلق الله . ثم هو الظلوم الجهول وهو الذي يطغى ان رآه استغنى .

وتحمل الانسان لهده الاوصاف يؤكد حريته وارادته واختياره لما يضعه تحت هذا الوصف أو ذاك . وهذا لا يكون الا لمخلوق حر مسئول .

وهذه الميزة التي نشعر بها داخلة كما يقول بعض الباحثين- في باب التوازن الذي هو خاصية من خصائص التصور الاسلامي . اذ يثبت الاسلام للمشيئة الالهية الطلاقة والفاعلية التي لا فاعلية سواها . وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الانسانية الايجابية ويجعل لها الدور الاول في الارض وخلافتها . وهو دور ضخم يعطي الانسان مركزا ممتازا في نظام الكون كله . ويمنحه مجالا هائلا للعمل . والفاعلية والتأثير . ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الالهية . وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الاسباب الظاهرة وباعتبار ان وجود الانسان ابتداء وارادته وعمله وحركته ونشاطه . داخل نطاق المشيئة الطليقة . المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه (١) وهل يمكن ان يكون كل هذا الدور دون ميزة كهذه ؟ فهي ميزة وطريق للمسئولية .

وهذا التميز الذي يستشعره الانسان سواء بهذه الخصيصة أو غيرها مما سبق ذكره في جسم الانسان أو عقله . هذا التمييز يشعر به كل انسان . فنحن ندرك وجودنا . ونشعر باننا نملك نشاطا خاصا بنا .

---

(١) حصائص لتصور الاسلامي ٢٠٤

ونشعر باننا نختلف عن الاخرين ونشعر بحرية ارادتنا ، وكل هذه المشاعر تؤكد اننا مستقلون عن بيئتنا بل أننا نتمتع بقسط وافر من الاستقلال عما تتمتع به الحيوانات الاخرى . فقد حررنا عقلنا ، والانسان قبل كل شئ هو مخترع الادوات والاسلحة والآلات . وقد استطاع ان يظهر خصائصه المميزة بواسطة هذه المخترعات (١) .

وهذا الاحساس بالتمييز لا يأتي وليد فلسفة أو دراسة تجريبية ، ولكن حسب الانسان فيه أن يبعد عن ساحة الهوى والشطط . فاذا كان كذلك ادرك بأدنى تأمل ويسير مشاهدة – عجائب ورعاية الله في خلقه . ان جنينا أو وليدا أو سائرا في الحياة متحركا يؤدي دوره . وتصيبه بعض الامراض فيدرك قيمة الحواس وميزة الصحة والنشاط ونعمة العقل والهداية ، ويرى البهائم تقاد قودا على غير رأي منها . فيدرك قيمة الارادة وضرورة الحرية ، أقول يدرك كل هذا بتأمله اليسير لنفسه . وهو بذلك يكون قد وضع اقدامه على الطريق الحقة . تلك هي معرفة النعم ، سبيلا الى الشكر وتحمل الامانة دون حمل أو تأخير .

واذا كان الله قد أوضح معنى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم » بما ذكرنا بعضه من تكريم في الخلق بكل مكونات الانسان ، فان الله سبحانه لم يترك هذا الكائن سدى ، بل بقدر ما هيأه للحياة – كما رأينا هيأ الحياة له ، وذلك بتسخير الكون له ، كما سدد هذه العلاقة بين الانسان والكون عن طريق الرسل . وكلاهما : التسخير وارسال الرسل تكريم للانسان لا محالة . فلنلق نظرة تذكر على كلا المظهرين .

---

(١) الانسان ذلك المجهول/٧٥

ب   تهيئة الحياة للانسان

كرم الله سبحانه الانسان بتهيئة الحياة له . وتسخير ما فيها لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه الله من اجله . وسرى هذا التسخير في كل ما في الكون مما يتعامل معه الانسان ويحتاج اليه . وجهلنا بالحكمة في بعض المخلوقات لا يعنى عدم نفعها . وفي هذا ابلغ تكريم حيث سخر الله للانسان ما هو اكبر منه خلقا كالسموات والارضين . واعظم منه جسما كالانعام . واكثر منه خطرا وأثرا في ظاهر الامر كالبحار والنار . وغير هذا كثير ومختلف . « واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فانما اوجد لاجل الانسان . اما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير . أو الاغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار . واما لانتفاع ما ينتفع الانسان به كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان نفعه فليس يخرج عن كونه نافعا وقد بين العلماء نفع جلها ، وما لا سبيل لبعضنا أوكلنا الى معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله تعالى جده ، أو رب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات كالشجر الذي فيه العسل بالقوة . وما سخر لمعرفته واستخراجه الا النحل .. »(١)

ولو علم أصحاب اتجاه تألية الطبيعة ولو علم من حصر الانسان المكرم في دائرة الاقتصاد . لو علم هؤلاء جميعا كم يحطون من كرامة الانسان الذي نصبوا أنفسهم في دائرة مكانته فيما زعموا . لو علموا هذا لبحثوا عن تصور آخر يعلي شأن الانسان . ولن يكون ذلك الا في تصور ينطلق من قاعدة صلبة . تدرك ان الله هو خالق هذا الكون . وخالق هذا الانسان . وبينهما من التفاعل والتناسق ما يجعل بينهما تأثيرا

---

(١) الذريعة ١٥ ـ ١٦

وتأثرا . وقد اراد الله ان يكون الانسان مسلطا على المادة يبدع فيها وينشيء ويظهر من اسرارها ما أودعه الله ، ويتلقي من هذه الأسرار ما يؤدي الى العظة والاعتبار .

« وتكريم الوجود الانسان مع عدم احتقار الوجود الكوني - يكفل لهذا الانسان مقامه وكرامته . ويجعل حياته ومقوماته اكرم من أن تمس في سبيل توفير أية قيمة مادية اخرى . وذلك مع عدم الاخلال بالقيم المادية بالابداع في هذه المادة »(١)

واذا تقرر هذا التكريم بتهيئة الحياة للانسان ، فهذه مجرد نماذج تؤكد ما قررناه .

الزمان والمكان

أما الزمان فقد جعله الله الليل والنهار ، يتعاقبان ليحققا للانسان اطار الحياة يكد ويسعى نهاره في ضوء يمكنه من هذا ويستريح ليله في سكون العزيز العليم ، ولذلك ذكر القرآن ما يتصل بالليل والنهار أما بصيغة التسخير وأما بذكر الغاية من هذا التسخير وانكر على الانسان ألا يدرك سر هذه النعمة فلو كان الليل دائما ، أو النهار دائما فكيف يتصور ان تكون الحياة ، وليس هناك من يسخر الليل والنهار ويجعلها خلفة للمذكرين الشاكرين غير الله سبحانه .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي/١٠٢ - ٢٤٤

يقول سبحانه :

« هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » (١)

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » (٢)

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب .. » (٣)

« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة منْ اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون .. قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة منْ اله غير الله يأتيكم بليل لتسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٤)

يقول ابن كثير في تفسير آية الاسراء (يمن الله على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل . وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والاعمال والاسفار وليعلموا عدد الايام والجمع والشهور والاعوام . ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات . والمعاملات . والاجارات . وغير ذلك . ولهذا قال : « لتبتغوا فضلا من ربكم » أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك . « ولتعلموا عدد السنين والحساب » فانه لو كان الزمان كله نسقا واحدا . واسلوبا متساويا لما عرف شيءٌ من ذلك كما قال تعالى : « قل

---

(١) يونس ٦٧
(٢) ابراهيم ٣٣
(٣) الاسراء ١٢
(٤) القصص ٧١ ، ٧٣

أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا .. » الى قوله « ولعلكم تشكرون » (١)

ويدرك الانسان السوي بحسه وعقله مبلغ التكريم في هذا التنظيم لزمن الانسان . هذا عن الزمان .. اما المكان :

فهو كوكبنا الذي نعيش عليه ، الارض كما سماها القرآن وقد كرم الله الانسان حين مهدها له ، وجعلها صالحة للحياة بما خصها الله به من كثافة ، وجاذبية ، وحركة ، وهواء ، وماء وغير ذلك من اسباب الحياة .

وهنا في هذا الكون سيارات اخرى غير أرضنا منها ما هو أقرب من الشمس ومنها ما هو أبعد من أرضنا ومنها ما هو اكبر ومنها ما هو اصغر . وكلها بحسب تقدير العلم الذي ارجح ان يكون صحيحا . منفتقة عن السماء ، كما يقول القرآن .. فأرضنا التي من الله علينا في آيات كثيرة بخلقها وذكرنا بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام هي السيار الوحيد الذي جعله الله صالحا للحياة فقربها من الشمس معتدل والحرارة التي تصل اليها معتدلة وكثافتها تفوق كثافة كل السيارات ، حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ، ودورتها في اليوم معتدلة كافية لاحداث ليل ونهار معتدلين صالحين للسعي والراحة ودورتها السنوية معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة صالحة لارواء الزروع . وهي تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة) (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير/المجلد الثالث/٢٦ تفسير سورة الاسراء . قصة الايمان/٣١٩
(٢) قصة الايمان/٣١٧ . ٣١٨

وقد وصل العلم الى كل هذه الحقائق بعد ان قررتها آيات تتحدث عن هذه الارض نذكر منها قوله تعالى :

« الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » (١)

« الله الذي جعل لكم الارض قرارا » (٢)

« والارض مددناها وألقينا فيها رواسي » (٣)

« هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٤)

« هو الذي جعل لكم الارض بساطا » (٥)

« وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا » (٦)

ولشديد الارتباط بين الارض والسماء في القرآن الكريم نذكر ان الآيات التي تحدثت عن السماء جاءت في معرض التذكير بعظم خلقها ودلالتها على قدرة خالقها . وكونها حجة على من استصعب خلق الانسان من عدم . ولعل أبرز ما يرتبط بذكر السماء في القرآن الكريم هو كونها مكانا للشمس والقمر بما فيهما من جليل المنافع لحياة الانسان . من بثهما الضوء والدفء . وجعلها حسبانا للايام والشهور .

---

(١) نرحرف ١٠
(٢) عافر ٦٤
(٣) لحجر ١٩
(٤) ىنث ١٥
(٥) نوح ١٩
(٦) الاعرف ٧٤

وغير هذا من الفوائد الامر الذي حرك همة علماء الفلك ، فذاكروا وتدارسوا وأدركوا من عجائب الله الكثير وكلها تأتي لتقدم لهذا الانسان نفعا . أو تمنع عنه – باذن الله – ضرا .

من حاجات الانسان

ونعنى اهم الحاجات الضرورية وهي تتمثل في الطعام والشراب والنار ، ثم في سبيل هذا يسلك الانسان مسالك الانتفاع باشياء موجودة في الكون ، ولقد كان من فضل الله وتكريمه للانسان ان يسر له هذه الحاجات كما يسر له الهواء للتنفس والارض للسكن والشمس والقمر والليل والنهار .

فآيات عديدة تتحدث عن الماء وكونه سببا للحياة ، وجوده ضرورة . وتوزيعه في الارض بهذه الصورة رحمة من الله وفضل كبير .

يقول سبحانه :

« **أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** » (١)

« **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء . ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله** » (٢)

« **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض** » (٣)

---

(١) الواقعة/٦٨ ، ٦٩

(٢) الروم ٤٨

(٣) المؤمنون ١٨

« اولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز . فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » (١)

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٢)

« الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها » (٥)

« وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه . وهذا ملح اجاج ومن كل تاكلون لحما طريا . وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٣)

فالماء سبيل حياة الارض التي تنبت وتثمر للانسان . وهو ينزل من المطر الذي تحكمه قوانين الحرارة . والتبخر . والتكاثف . الى غير ذلك مما فسره العلم . وتجمع المياه في بحار يعطي اكثر من نعمة . ويفيد اكثر من حكمة . ففي خلق البحر ذاته على وضعه هذا كمياه بين اليابس . في خلقه حكمة وفيه نعمة كونه مالحا . مع أن غيره من مياه البحيرات والانهار كان عذبا وفيه الاسماك والاطعمة والجواهر . وفيه نعمة حمل الفلك وغير هذا كثير . (٤)

وارتباط الماء بالانبات والاثمار الذي هو طعام الانسان وماشيته . ارتباط واضح ذكره القرآن في اكثر من آية نذكر منها قوله تعالى :

---

(١) السجدة/٢٧
(٢) الجاثية ١٢
(٣) فاطر ١٢
(٤) قصة الايمان ٣٣٥
(٥) فاطر ٢٧

« وهو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (١)

« فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولانعامكم » (٢) .

وفي تدبر هذه الآيات ما يفيد التكريم للانسان حيث هيأ له أسباب الحياة على الارض . فالماء والنبات والاثمار . وجعل الارض خصبة تنشق لتنبت . وفوق هذا فهناك تسخير البحر وما فيه من لحوم للطعام وحلي للزينة . وكل هذا ينطق بقدرة الله ولا شك اذ كيف يتصاعد الماء بخارا لينزل مصدر حياة وكيف تنبت الارض ثمارا مختلفة والماء واحد . والعبر اكثر من الحصر . والنار التى عرف تاريخ الانسانية نفعها هي نتاج انبات النبات . ووجود الشجر الذي منه مادتها . يقول سبحانه :

« أفرأيتم النار التى تورون أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » (٣)

« الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون » (٤)

وما ذكرناه مجرد امثلة تؤكد ما ذهبنا اليه من أن الله يسر للانسان

---

(١) النحل ١٠ ، ١١
(٢) عبس ٢٤ ، ٣٢
(٣) الواقعة ٧١ ، ٧٤
(٤) يس ٨٠

سبيل حياته زمانا ومكانا . وضروريات حياة . دون أن يهمله في جانب المتعة والزينة كما يتبين من الآيات التى تحدث عن الانعام .

يقول سبحانه وتعالى :

« أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » (١)

« وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (٢)

« وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وأوبارها واشعارها أثاثا ومتاعا الى حين » (٣)

« الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون » (٤)

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون » (٥)

وما أظن الامر يحتاج الى بيان أوضح من هذا البيان . وبخاصة بعد

---

(١) يس ٧١ ـ ٧٣
(٢) النحل ٦٦
(٣) النحل ٨٠
(٤) غافر ٧٩ ، ٨٠
(٥) النحل ٨

ان اثبت العلم حاجة الانسان الى البروتينات ، وان اعظم مصدر للبروتينات الكاملة هو (اللحوم واللبن) الى جانب ما فيهما من معادن وفيتامينات . كما اثبت العلم ان هذه الحيوانات اللبونة هي التى تنتج اللبن باستمرار ، وأنها وحدها التى تجمع بين هذه الخصائص وبين القدرة على الحرث والحمل والجر . (١)

ولعل هذا الذي ذكرنا من التكريم هو ما عرفه بعض مفكري الاسلام بالعناية الالهية حيث جعلها ابن رشد دليلا على وجود الله سبحانه وهو – عنده – دليل قرآني ويقيني يصاحب دليل الاختراع وخلق الله سبحانه للموجودات . يقول : فما هي الطريقة الشرعية التى نبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدتها الصحابة رضوان الله عليهم ؟ قلنا : الطريقة التى نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من بابها . اذا استقرئ الكتاب العزيز ، وجدت تنحصر في جنسين : احدهما طريق الوقوف على العناية بالانسان ، وخلق جميع الموجودات من اجله ولنسم هذا (دليل العناية) والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الاشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد ، والادراكات الحسية ، والعقل ، ولنسم هذا (دليل الاختراع) .

فأما الطريقة الاولى فتبنى على أصلين : أحدهما ان جميع الموجودات التى ههنا موافقة للانسان ، والاصل الثاني ان هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك ، مريد ، اذ ليس يمكن ان تكون هذه الموافقة بالاتفاق .

---

(١) قصة الايمان/٣٦٨

فأما كونها موافقة لوجود الانسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الانسان . وكذلك موافقة الأزمنة الاربعة له . والمكان الذي هو فيه ايضا وهو الارض . وكذلك تظهر ايضا موافقة كثير من الحيوان له . والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والانهار والبحار . وبالجملة الارض والماء والنار . وكذلك أيضا تظهر العناية في أعضاء البدن وأعضاء الحيوان . أعني كونها موافقة لحياته ووجوده »(١)

وهذا الذي ذكرنا مجرد أمثلة تشير الى صحة ما نذهب اليه . والا فآيات التسخير عديدة . وفوائده جمة . اذ منه ما هو لمعرفة عدد السنين والحساب . ومنه ما هو قوانين المعارف والعلوم . ومنه ما يصلح في باب الحجاج مع الذين لا يؤمنون بوجود الهٍ قوي قادر . وغير هذا من الاهداف التى يستهدفها التسخير الى جانب ما ذكرنا . (٢)

لكن تعامل الانسان المكرم في ذاته . مع الكون المسخر له قد يحدث فيه اضطراب لو انه اعتمد في كل شيءً على العقل وحده . اذ ربما أثر على العقل مؤثر فضل الطريق وأخطأ فهم معنى التكريم . لذا زاد الله من تكريمه للانسان فأرسل له الرسل ليسدد خطاه ويوقفه على الطريق الحقة .

---

(١) ابن رشد مناهج الادلة ٣٨ تحقيق د. محمد قاسم طبعة ١٩٦٥م الانجلو المصرية
(٢) انظر في هذا ابراهيم ٣٢ ، النحل ١٤ ، حج/٦٥ ، العنكبوت ٦١ لقمان ٢٠ ٢٩ . فاطر١٣ الزمر ٥ . الزخرف١٣ ، الجاثية ١٢ . (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي مادة سخر)

ج ـ رسالات الله للانسان تكريم له

ربما خالط بعض الاذهان وُهم مؤداه أن تكريم الله للانسان بالعقل قد يشوبه ارسال الرسل وسيادة الوحي . ولعل هذا الوهم في اذهان بعض المثقفين مبعثه أن الفكر الغربي عرف صراعا فكريا حادا بين العقل وما يسمى الدين (الذي هو في الحقيقة تعاليم الكنيسة) . عرفوا هذا الصراع وهم يبحثون عن أي المصادر أوثق للمعرفة وتخبطوا في ذلك ايما تخبط . فقد تبعوا نصوص الكنيسة زمنا ثم دعاهم التفكير فيها الى الثورة عليها ونبذ ما بها من خرافات . الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران وغيرها . وهنا وجدوا في العقل ضالتهم فاعتبروه المصدر اليقيني للمعرفة . والمقياس للصواب والخطأ . وأعطوه السيادة التي كان يتمتع بها ما يسمى الدين (أعنى تعاليم الكنيسة) وفترة سيادة العقل هذه هي ما يعرفها تاريخ الفكر الغربي بعصر التنوير . أو العصر الانساني . لكن هذا لم يدم طويلا . اذ بدأت بوادر الشك في العقل كمصدر للمعرفة ولجأ الى الحس والواقع والتجربة والمشاهدة . ليكون ما يسمى بالمصدر التجريبي للمعرفة . وبخاصة بعد أن ثبت تقدم كثير من العلوم في اطار هذا المنهج التجريبي . وغدا وهما ما كان يسمى بسيادة الدين . وما يسمى بسيادة العقل (١) . لعل بث الغرب لهذه الافكار في عقول المسلمين مفهما اياها على أنها قضية صراع حتمي بين الدين الذي يعطي الاوامر بقسوة وبين العقل البشري الذي يحترم انسانية الانسان . أقول لعل تعميم هذه الافكار وتصويرها هو الذي ألقى في بعض الاذهان الوهم الذي أشرنا اليه .

وحقيقة الامر غير هذا الوهم تماما . فزيادة تكريم ورعاية من الله

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ١٠٢ ، ١٠٦

للانسان شاء ارسال الرسل . اذ بعد ان كرم الله الانسان في تكوينه جسما وعقلا وارادة وهيأ له الكون للحياة تسخيرا وانقيادا . ما كان لرحمته وفضله ان يتركا الانسان يتعامل مع هذا الكون بعقله وحده . وعقله جزء من جسمه يخضع لبعض هواه أحيانا . ويتأثر بعلته وضعفه فكان ارسال الرسل ترشيدا لهذا التعامل مع الكون . وسياجا يحمي العقل من الانحراف وبخاصة ان العقول تختلف من شخص الى آخر فليس فيها ما يمثل المقياس للحكم فضلا عن عدم احاطتها بحكم محدوديتها .

(بعثه الانبياء الى الناس من الضرورات التي لابد لهم منها . وذلك ان جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الاخروية . جزئياتها وكلياتها . وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ولم يمكنهم ان يعرفوا كيف يجب ؟ وفي أي وقت يجب ؟ وكم يجب ؟ فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم . فبعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكونهم ويعلمونهم الكتاب والحكمة . لكي اذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم ادراكهم . ولهذا ازال علتهم ببعثه الانبياء . فقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) ومكابدة الانسان حياته على هذه الارض . واحتياجه فيها الى قانون ونظام يحكم حياته وينظم شئونها كي تجيئ وفق غاية الله من خلقه . وكي يظفر من معايشتها بسعادة في الدنيا . ونعيم في الآخرة . كل هذا يقتضي وجود هدى الهي ولا يكون ذلك الا بالوحي والرسل .

---

(١) الذريعة ٦٨ ، ٦٩

فهم يحملون الكتب ومعجزاتهم تؤكد صحة نبوتهم ، وهم يبلغون أمر السماء . فلا يكون هناك عذر لمعتذر ما دام قد تبين الرشد من الغي . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، وتلك رحمة الله بالانسان)(١) .

على أن هذا التكريم بالوحي والرسل لا ينقص من قيمة العقل ، ولا يجعله مهملا في مجال التلقي عن الوحي وفهم ما يتلقي وادراك ما من شأنه ان يدركه ، بل للعقل في حدود هذا الاطار مهمة ورسالة لكنه ليس حكما أخيرا على النص ، بل ما دام النص محكما فالمدلول الصريح له هو الحكم . وعلى العقل ان يتلقي مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح ويقيم منهجه على أساسه .(٢) وفي الاسلام لا يتصور تصادم بين العقل وهو من آثار الله وبين الوحي وهو من آثار الله لأنه يجب ان تنسجم آثار الله مع بعضها .

والبعض يصور العقل على أنه رسول من الله الى خلقه ، وهو رسول في باطن الانسان والرسول المرسل الى قومه رسول ثان من خارج الانسان ولا سبيل لأحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن (فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كان تلزم الحجة . ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة انبيائه على العقل ، وأمر أن يفزع اليه في معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مسدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرا واجتماعها كما قال تعالى : نور على نور .(٣) ولا

---

(١) ابوبكر جابر الجزائري/عقيدة المؤمن/٢٧٥ . الطبعة الاولى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م نشر مكتبة الكليات الازهرية/مصر

(٢) خصائص التصور الاسلامي/٣٠

(٣) الذريعة/٧٠

يضير العقل ان تقصر طاقاته عن ادراك ذات الله لانها ليست محدودة . والعقل محدود ولا يتأتى ان يحيط المحدود بغير المحدود . وما دام العقل قد رضي بالله ربا وصفاته التي وصف بها سبحانه نفسه . فانه (أي العقل) لا يحق له ولا للمدافعين عنه ان يعتبروا عدم احاطته بالذات الالهية نقصا في العقل لا يجعله طريقا للايمان بل الحق غير هذا فالعقل الذي يزيد عليه الايمان هو الموجه اليه التكليف . والتبشير والانذار . وهو المسئول بعد سماعه للرسل . لذا لا حجة له بعد كل هذا . وتسليم العقل بالموجود الكامل هو اعتراف بالتكليف واذعان له . (١)

وقد بسط القرآن القول في تكريم الله للانسان بالرسل رحمة به وفضلا من الله .يقول سبحانه :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٢)

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٣)

« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين » (٤)

« وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (٥)

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٦)

---

(١) الانسان في القرآن ٢٦١
(٢) الاسراء ١٥
(٣) النساء/١٦٥
(٤) الانعام ٤٨
(٥) ابراهيم ٤
(٦) الحشر ٧

« واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم »(١)

والآيات التي تتحدث عن ارسال الرسل تعنى والله أعلم ان من عدل الله وفضله أن يرسل للناس رسلا يبينون لهم الخير من الشر . وهم يتحدثون بلسان اقوامهم ليفهموا بيانهم . كي تتحقق الغاية من البشارة للصالحين . والانذار لغيرهم . (أي أنه تعالى انزل كتبه وارسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويأباه . لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : « ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » .. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا احد اغير من الله . من اجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحب اليه المدح من الله عز وجل . من اجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أحب اليه العذر من الله . من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ آخر « من أجل ذلك ارسل رسله وأنزل كتبه » (٢)

وقد ذكرنا من قبل ما يؤكد الحاجة الى الرسل لعدم كمال العقل وحده في ما يأخذ وما يدع . بل نؤكد ان العقل كثيرا ما اشقى نفسه واضاع جهده دون جدوى لانه ابتعد عن هدى الرسل في رسالاتهم ، وقد كان الانبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وافعاله . وعن بداية هذا العالم ومصيره . وما يهجم عليه الانسان بعد

---

(١) الحجرات ٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ٥٨٨ . ج ٢ ٥٢٢

موته . وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفوا بدون تعب . وكفوهم مؤنة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول . لان هذه العلوم وراء الحس والطبيعة . ولا تعمل فيها حواسهم . ولا يؤدي اليها نظرهم . وليست عندهم معلوماتها الاولية . لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة . واعادوا الامر جذعا وبدأوا البحث أنفا ، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة . لا يجدون فيها مرشدا ولا خريتا خبيرا . وكانوا في ذلك اكثر ضلالا واشد تعبا . وأعظم اشتغالا بالفضول .. من رائد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الانساني في الجغرافية وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الاجيال . فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال . وعمق البحار من جديد . ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه . على قصر عمره وضعف قوته . وفقدان آلته . فلم يلبث أن انقطعت به مطيته . وخانته عزيمته . فرجع بمذكرات واشارات مختلفة . وكذلك الذين خاضوا في الالهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى . جاءوا في هذا العلم بآراء فجة . ومعلومات ناقصة . وخواطر سانحة . ونظريات مستعجلة .. فضلوا وأضلوا »(١)

وقد أشار الى هذا الامام القرطبي . حين فسر قوله تعالى « ولقد كرمنا بني آدم .. » الآية وذكر أن العقل لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وانزلت الكتب(٢) ومعناه أن ترك الامر للعقل في كل شئ قد يقلب النعم نقما . ويحيل اليسر حرجا وهو ما يحبذ اتباع الرسل . والعقل يقضى بذلك . لانهم ادرى وأعلم . وقوله تعالى « واعلموا

---

(١) ابو حسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين,٦٨
(٢) تفسير القرطبى المجلد الخامس ٢٩٣ تفسير سورة الاسراء

أن فيكم رسول الله ، أي أعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لامره . فانه أعلم بمصالحكم واشفق عيكم منكم . ورأيه فيكم اتم من رأيكم لانفسكم . كما قال تبارك وتعالى « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة الى مراعاة مصالحهم فقال « لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ، أي لو اطاعكم في جميع ما تختارونه لادى ذلك الى عنتكم وحرجكم كما قال سبحانه وتعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن . بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ، (١)

ولعل هذه الاشارات السابقات تكفي في الايماء الى كون ارسال الرسل مظهرا من مظاهر تكريم الله للانسان . يكمل ما قبله ويعطيه معنى . وفي كل المظاهر التى ذكرنا تتجلى صورة الانسان المكرم بين مخلوقات الله جميعا .

واذا كان البعض يكفيه شرف هذا التكريم فيتغنى به . ويطرب له . فانا نرى غير ذلك نرى ان هذا التكريم البين الجي يلقي على الذهن سؤالا مؤداه : لماذا كل هذا التكريم ؟

ويسوغ السؤال للعقل كون الانسان هو المخلوق الذي يعصى الله . ويشاق الله ورسوله . « أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » (٢) الأمر الذي يحيل السؤال بالراس . ويورده على

---

(١) تفسير بن كثير الجزء الرابع ٢١٠ تفسير سورة الحجرت

(٢) سوره يس ٧٧

العقل والوجدان : لماذا كل هذا التكريم ؟ ما الميزة التى تجعل الانسان جديرا بكل هذه العناية ؟ ما دوره ؟ كيف يحقق انسانيته ؟ اسئلة تدور ولابد لها من جواب .

وهذه محاولات الصفحات التالية ان شاء الله . والله من وراء القصد .

الفصل الثالث

حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي

الانسان مخلوق مسئول

. اذا كان الحديث عن مظاهر تكريم الله للانسان قد أثار اسئلة مؤداها : لماذا كل هذا التكريم للانسان ؟ وبأي الاشياء يستحق هذا ؟ فان الاجابة على هذا كله تقتضي ان نعرض للوجه الاخر من قضية الانسان في هذا الكون . فانه الى جانب الآيات التي تتحدث عن ابراز تكريمه نجد آيات اخرى تربط به دورا ، وتنيط به مهمة . نذكر منها قوله تعالى :

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »(١)

« أيحسب الانسان ان يترك سدى »(٢)

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »(٣)

ومن هذه الآيات ونظائرها نفهم ان دورا ما يجب ان يقوم به الانسان ، وان كانت الآية الأخيرة حددت الغاية من خلق الانسان المميز فان مفهوم العبادة يحتاج الى بيان منه يتحدد الدور بدقة ووصف يساعد في بيان بعض جوانب الاجابة على السؤال السابق .

وفي دائرة اهتمام علوم الانسان بالانسان كان حديث ودراسات في

---

(١) المؤمنون/١١٥
(٢) القيامة/٣٦
(٣) الذاريات/٥٦

مسئولية الانسان فالباحثون في مجال الاخلاق يدرسون المسئولية الاخلاقية تلك التى يراقبها الضمير والوجدان ، والباحثون في مجال القانون الوضعي يبحثون المسئولية القانونية تلك التى تراقبها اجهزة الدولة وتجرم على أساسها الفعل أو تقبله . ويدرس كذلك العلاقة بين الحق والواجب . (١)

لكن كل هذه المعالجات – مع تقديرنا لها تتحدث عن مسئوليات جزئية تتضمنها المسئولية الحقيقية وهي مسئوليتنا تجاه الاسلام ذاته باعتباره دين الله الذي يحقق للبشرية كمالها ، ويمنحها الأمن والسداد في مسيرتها ، والا فان الخسارة كبيرة ولا يمكن ان ينفع معها تكريم مظهري لهذا الانسان الذي نكص عن مسئوليته .

« نحن لا نحتاج الى فرض اصلاح على الاسلام – كما يظن بعض المسلمين لان الاسلام كامل بنفسه من قبل ، اما الذي نحتاجه فعلا فهو اصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا ، وغرورنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا .. ان الخسارة لن ترجع علينا – نحن المسلمين وحدنا – ولكنها سترجع على البشرية كلها بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الباقي لها من هداية الله ، وتكدير أو تسميم – المورد الوحيد الذي يمكن ان نستقي منه الهدى الرباني الخاص ، وسترجع على البشرية كلها بحرمانها هذه المثابة الثابتة المستقرة في الارض المرجرجة التى تمور بالاهواء . والتى ظهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت

(١) د. محمد فتحي عثمان المسئولية في الاسلام ص ٥ بحث مشور في الموسم الثقافي لكلية الشريعة جامعة الامام محمد بن سعود
وأيضا ، د. محمد عبد الله دراز/خلق القرآن/٧٥ ، ٧٨ ، ٨٢

ايدي الناس . ولم تعد لها منجاة الا في هذه المثابة الآمنة المستقرة . الموصولة بالله .. »(١)

وهذه المسئولية الكبرى هي –كما سيتضح قريبا– خطيرة لانها الاسلام . وامانة تبليغه ونشره . والحفاظ عليه . غضا كيوم نزل على الرسول وطبقه هو واصحابه . « ان الاسلام قضية كبرى .. وامانة اكبر . وان الذين حملوها حتى الآن لم يحملوها وان اكثرهم حملها كما يحمل الحمار الاسفار .. لم يدر ما بها من خير وكنوز .. وان بعضهم حملها كما يحمل الذئب الغنم .. أو كما يحمل القط الفأر »(٢) .

المسئولية في التعبير القرآني

وردت آيات في القرآن توضح مركز الانسان في هذا الكون من قبل مسئوليته ودوره . وهذه الآيات وان اختلفت في الفاظها ومناسباتها فانها تلتقي جميعها عند ربط دور الانسان به وقياسه بمدى تحقيقه وفق منهج الله . وهانحن أولاء نذكر بعض الآيات :

الخلافــــة

يقول الله سبحانه :

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون » (٣)

---

(١) محمد أسد,الاسلام على مفترق الصرق,١١٠ ترجمة عمر فروح
(٢) د على حريشة تصحيح مفاهيم في تصبيق الشريعة ص ٢٢ بحث نشر في الموسم الثقافي لكلية الشريعة – جامعة الامام ربيع الاول ١٣٩٩هـ
(٣) سورة ٣٠

وذهب المفسرون في معنى الخلافة مذاهب . فمن قائل انها خلافة الله في الحكم بالعدل بين الناس . وهذا يعنى آدم وكل من يقوم مقامه في الحكم بالعدل بين خلق الله . ويذكر ابن كثير في روايته عن المفسرين أن القرطبي استدل هو وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه . ويقطع تنازعهم . وينتصر

لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش الى غير ذلك من الامور المهمة التى لا يمكن اقامتها الا بالامام . وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

ومن المفسرين من قال : « اني جاعل في الأرض خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى : « هو الذي جعلكم خلائف في الارض » وقال « ويجعلكم خلفاء الأرض » وقال « فخلف من بعدهم خلف » ..

ويذكر ابن كثير أن قول الملائكة « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ليس اعتراضا ولكنه سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الارض ويسفك الدماء فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك .. قال تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال : « اني أعلم ما لا تعلمون » أي اني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها . ما لا تعلمون انتم فاني سأجعل فيهم الانبياء وارسل فيهم الرسل . ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد الزهاد . والاولياء والابرار . والمقربون والعلماء الخاشعون والمحبون له

تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم(١) .

وليس من المعقول ان يستحق الانسان ان يقول الله عنه « اني أعلم ما لا تعلمون » وهو دون دور أو مهمة تستحق أن يغتفر من أجلها وجود بعض المفسدين من جنس الانسان .

ومهما قيل عن معنى الخلافة فهي تبعة ومسئولية يورثها السلف للخلف ويتوقف على أدائها تحقيق مناط التكريم الذي هم فيه ، كما يرتبط هذا بوجه أو بآخر باستمرارية الدين وخاتمية الرسالة .

ولفظ الاستخلاف هنا - على أي معنى - يتسع ليشمل صورة الانسان وهو يزرع ما دام ذلك من اجل تحصيله قوته حلالا ليتمكن من العمل المنوط به في عمارة الارض كما يشمل جهده العقلي والعلمي وهو يفجر الذرة ، ويرسل الاقمار الصناعية لتكشف له طبيعة الغلاف الجوي للأرض ما دام كل ذلك طريقا يبتغي به وجه الله . وتحقيق معنى الخلافة والعبادة .

وهذا الشمول في المفهوم يتلاءم مع مركز الانسان في هذا الكون حيث لا ينبغي أن تعلو قيمته قيمة مادية ، أو تهدر من اجل ذلك كرامته التى اكدها القرآن في مواضع شتى وصور مختلفة .(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير/ج ٦٩/١ ٧٢ تفسير سورة البقرة
(٢) خصائص التصور الأسلامي/١٢٦

العبـــادة

ويقول سبحانه : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١)

يقول الحافظ ابن كثير : (أي انما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي اليهم وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس « الا ليعبدون » أى الا ليقروا بعبادتي طوعا أوكرها .. وقال ابن جريج : الا ليعرفون . وقال الربيع بن انس « الا ليعبدون » أي الا للعبادة . (٢)

وعبادة الله ومعرفته هي غاية الوجود الانساني كما تعنى الآية والله اعلم بمراده . وهذا يعنى كل نشاط انساني يتجه به الانسان الى الله . طبقا لمقتضيات الخلافة المتحددة (ويتمثل في عبودية الله وحده . بالتحاكم الى منهجه وحده في كل شئون الحياة .. فاذا لم يتجه الى الله بكل نشاط واذا لم يتحاكم الى منهج الله في كل شأن فقد اخل بهذه الحقيقة الثابتة . وخرج على غاية وجوده الانساني) (٣) . والتوجه الى الله بالعبادة ومعرفة الله حق معرفته مسئولية ليست هينة . لانها محاولة من الانسان جادة للارتفاع الى مقام العبودية لله وحده . وهو مقام رفيع خوطب به رسولنا الكريم ليلة الاسراء والمعراج « سبحان الذي اسرى بعبده » وصعوبته تكمن في أنه تحرر تام من العبودية لغير الله من مال وولد ومتاع حياة ونوازع نفس وغير ذلك مما يغرق الناس فيه حين لا يقومون بانفسهم في مقام العبودية . فيهبطون باقدارهم من علياء التكريم المسئول الى حضيض الحيوانية اللا مريدة . والمنساقة وراء اخس النزعات .

---

(١) الذاريات ٥٦

(٢) ابن كثير ٤ ٢٣٨ تفسير سورة الذاريات

(٣) خصائص التصور الاسلامي ١٢٧

(ان العبادة في الاسلام ليست محصورة في اعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلا . ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية ايضا . واذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة الله) فيلزمنا حينئذ ضرورة ان ننظر الى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على انها تبعة ادبية متعددة النواحي .. وعبادة الله في أوسع معانيها تولف في الاسلام معنى الحياة الانسانية .. هذا الادراك وحده يرينا امكان بلوغ الانسان الكمال في اطار حياته الدنيوية الفردية .

ومن بين سائر النظم الدينية نرى الاسلام - وحده - يعلن ان الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا .. ان الاسلام لا يؤجل هذا الكمال الى ما بعد اماتة الشهوات الجسدية ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة من تناسخ الارواح على مراتب متدرجة كما هي الحال في الهندوكية - ولا هو يوافق البوذية التي تقول بان الكمال والنجاة لا تتمان الا بعد انعدام النفس الجزئية . وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم . كلا ان الاسلام يؤكد في اعلانه ان الانسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية . وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجود الامكان الدنيوي في حياته هو) (١)

الامـــانة

ويقول سبحانه وتعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها . وأشفقن منها . وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » (٢) .

(١) محمد أسد الاسلام على مفترق الطرق ٢٠ ٢٣ ترجمة د عمر فروخ
(٢) لاحزاب ٧٢ ، ٧٣

ولننظر بماذا فسرت الامانة في هذه الآية ومدى ما تعنيه من مسئولية : يقول ابن كثير : (قال العوفي عن ابن عباس يعنى بالامانة الطاعة . عرضها عليهم قبل ان يعرضها على آدم فلم يطقنها . فقال لآدم : اني قد عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم يطقنها . فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يا رب وما فيها ؟ قال : ان احسنت جزيت وان أسأت عوقبت فأخذها آدم فحملها فذلك قوله « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس : الامانة : الفرائض .. « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » أي غرا بأمر الله ..

وقال قتادة الامانة الدين والفرائض والحدود .

وقال مالك عن زيد بن اسلم : الامانة ثلاثة : الصوم والصلاة والاغتسال .

وكل هذه الاقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الاوامر والنواهي بشرطها . وهو انه اذا قام بذلك اثيب . وان تركها عوقب . فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق الله .. قال ابن زيد في قول الله تعالى « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال » الآية : قال ان الله عرض عليهن الامانة أن يفترض عليهن الدين ويجعل لهن ثوابا وعقابا . ويستأمنهن على الدين . فقلن لا . نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا . قال وعرض الله تعالى على آدم فقال : بين اذني وعاتقي . قال ابن زيد فقال الله تعالى له : اما اذا تحملت هذا فسأعينك أجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت ان تنظر الى ما لا يحل لك فارخ عليه حجابه . واجعل للسانك بابا وغلقا . فاذا خشيت فأغلق واجعل لفرجك لباسا فلا

تكشفه الا على ما احللت لك(١) وهذا المعنى الذي ذكره المفسرون للامانة ينطبق على المواضع الخمسة التى ذكر فيها كلمة امانة وامانات .
« فليؤد الذي أوتمن امانته » البقرة ٢٨٣

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » النساء ٥٨

« لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم » الانفال ٢٧

« والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » المؤمنون ٨ ، المعارج ٣٢

وهي (الامانة) وان كانت خصصت في آية البقرة الا انها داخلة في التذكير بالمعنى العام للامانة كما سبق ذكره .

وبقي ان نقول ان وصف الانسان بانه ظلوم جهول لحمله الامانة يحتاج الى بيان . وحقيقة الامر ان تفسيرات عديدة طرحت في هذا الصدد .

« فهو ظلوم جهول . ظلوم لانه يتعدى الحدود وهو يعرفها وجهول لانه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها وعنده امانة العقل التى تهديه الى علمها وما من كائن غير العاقل يوصف بالظلم والجهل لأنه لا يعرف الحد الذي يتعداه ، ولا تناط به معرفة الحدود ، وانما يوصف بالظلم والجهل مَن يصح ان يوصف بالعدل والمعرفة ومن يصح ان يسأل عن فعل يريده في الحالين »(٢) .

---

(١) ابن كثير/٣/٥٢٢ ، ٥٢٣ تفسير سورة الاحزاب
(٢) الانسان في القران/٢٥٠

ومعظم المفسرين على ان حملها بمعنى تحملها . أي لا يعطيها الا لصاحبها أو بمعنى تكبد تبعاتها ويفسرون ظلمه وجهله نظرا لضعفه باعتبار الغالب من افراد الانسان .

لكن صاحب تفسير الجواهر يضيف معنى جديدا وجديرا بالاعتبار اذ يفسر حمل الامانة وتشهد له بذلك دلالة اللغة كما ينقل عن تفسير الفيروزبادي : « فأبين أن يحملنها وحملها الانسان » أي أبين أن يخنها وخانها الانسان (١) وهو من باب حمل الرجل الشيئ أي أخره عن وقته .

وفي كل المعاني التي ذكرت تبرز معنى المسئولية وبخاصة اذا فسرت على أنها الدين وهذا ما نميل اليه .

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن الآيات التي ذكرت مسئولية الانسان آيات تتحدث عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر نذكر منها قوله سبحانه :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٢)

« كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف . وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣)

---

(١) السابق ٢٥٥

(٢) سورة آل عمران ١٠٤

(٣) آل عمران ١١٠

« ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » (١)

وهذه الآيات تنطق بالمسئولية التي يجب ان يتحملها الانسان في نشر الحق والخير واذا كان بعض المفسرين ذهب الى أن مهمة الدعوة الى الخير الذي هو الاسلام ومهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . هي من مهام الامة المسلمة وحدها حتى انه لا يصح لغير المسلم القيام بهذا . أقول وحتى على هذا الرأي فان ذلك مسئولية الانسان الذي هداه الله وهو الانسان الحقيقي لان من جاء اليه هدى الانبياء ، ورزق العقل ليفهم خير هذا من شره ، ثم هو لم يفد من كل هذه المنح . هو الذي هبط بنفسه عن مستوى الانسان كما يحكي القرآن نفسه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (٢)

وقد امتدح الله من قام بهذه المسئولية من أهل الكتاب كما جاء في الآية الثالثة واعتبرهم سبحانه من الصالحين .. وما ذلك الا لأنه مهمة الانبياء . ووصية الحكماء كما بدا من وصية لقمان لابنه : « يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور » (٣)

---

(١) آل عمران/١١٤
(٢) الاعراف/١٧٩
(٣) لقمان/ ١٧

« لقب القرآن الأمة المسلمة بخير أمة (لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر) وكذلك وصف المؤمنين من اهل الكتاب بامة قائمة لانهم يتلون كتاب الله ويعبدون الله تعالى ويؤمنون به وبالاخرة ولانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مما يدل على ان الانتماء الى خير امة . (والامة القائمة) لا يقتضى التحلي بصفات ذاتية فحسب بل يستوجب مع ذلك حمل الرسالة وقيادة البشرية وهداية العالم » (١) .

ولعل لصوق هذه المسئولية بالانسان المكلف هو الذي جعل الذم يتوجه الى بنى اسرائيل على تركهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واستوى في ذلك الذم العلماء والعامة كما يحكي حديث رسول الله : « ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول .. ياهذا اتق الله ودع ما تصنع . فانه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك ان يكون اكيله وشريبه . وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ثم قال (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (٢)

ثم قال : والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم . ولتأطرنه على الحق أطرا » (٣)

---

(١) جلال الدين العمري الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢١ ترجمة من الاردية احمل يوب الاصلاحي – نشر شركة الشعاع بالكويت ١٤٠٠هـ .

(٢) المائدة ٧٨ ، ٧٩

(٣) رواه بو دواود والترمذي

وقد شدد النكير على علمائهم بقوله : « لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون »(١)

ولعل في هذا - الى جانب بيانه المسئولية في هذا الامر على العموم – ما يحفز علماء الامة المسلمة الى تدارس الامور . وبيان وجه الحق فيها . وبيان حلال الامر من حرامه حتى تجنب هذه الامة اللعنة التى صبها الله على بنى اسرائيل وفي كل هذا بيان لعموم مسئولية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسئولية الانسان من حيث الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مسئولية الانسان من حيث هو عاقل مكلف بالدين ، والدين عند الله الاسلام . وكأن ما كان من أمر أهل الكتاب حلقة تتصل بما يجب ان يكون من قيام الانسان حامل الرسالة الخاتمة . وحق عليه ان يحملها يهدي بها من ضل عقله أو زاغ بصره وهو بهذا يصلح نفسه ويصلح غيره .(٢)

العلماء ومسئولية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولان هذه المسئولية هي جماع ما سبقها من الفاظ المسئولية في القرآن والسنة ولانها الطريق العملي والتنفيذي للامانة والخلافة والعبادة ولان ممارستها تحتاج الى جهد وصبر دائبين . لهذا وغيره من أسباب تركز اهتمام العلماء المسلمين على بيان وجوب هذه الفريضة . وخطورة التهاون في القيام بها . لان هذا النكوص ردة من الانسان الى حضيض الحيوانية وانتكاسة يتحمل البشر والحياة كلها نتيجتها الوخيمة .

---

(١) المائدة/٦٣

(٢) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٥ . ١١٥ . ١١٦

يقول الامام الغزالى : (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الاعظم في الدين وهو المهمة التى ابتعث لها النبيين جميعا ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة . واضمحلت الديانة وعمت الفترة . وفشت الضلالة . وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد . وهلك العباد . ولم يشعروا بالهلاك الا يوم التناد . وقد كان الذي خفنا ان يكون . فانا لله وانا اليه راجعون . اذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه . وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه . فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق . واسترسل الناس في اتباع الهوى . والشهوات استرسال البهائم وعز على بساط الارض مؤمن صادق . لا تأخذه في الله لومة لائم . فمن سعى في تلافي هذه الفترة . وسد هذه الثلمة . اما متكفلا بعلمها أو متقلدا بتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ، ناهضا باعبائها . ومتشمرا في احيائها كان مستأثرا من بين الخلق باحياء سنة أفضى الزمان الى امانتها ومستمسكا بقربة . تتضاءل درجات القرب دون ذروتها) (١) وورود كلمة سنة في حديث الغزالي ليس معناه ان هذا الامر حكمه سنة ولكنه يعنى بها طريقة وعملا . بدليل انه يعنون في كتابه الاحياء لهذه المباحث فيكتب الباب الاول في وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ويذكر اجماع الامة عليه . وهذه حقيقة : « ولا نجد احدا من العلماء المتقدمين او المتأخرين لم يجعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اساسا للدين . وفريضة عظيمة من فرائض الامة الاسلامية » (٢)

---

(١) احياء علوم الدين/٢٦٩,٢

(٢) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر/٢٥

ويقول ابن حزم « اتفقت الامة كلها على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من احد منهم » (١) .

ويذكر الجصاص « أكد الله تعالى فرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه وبينه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه فيه ، واجمع السلف وفقهاء الامصار على وجوبه » (٢) .

ويرى الامام ابن تيمية ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من أظهر احكام الشريعة المتواترة فان اهملت طائفة من الامة وجب على الدولة المسلمة محاربتها يقول شيخ الاسلام :

«كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة فانه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وان تكلمت بالشهادتين ، فاذا اقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا .. وكذلك ان امتنعوا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار الى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٣)

ولا يقدح في الوجوب الفهم الخاطئ لبعض آيات القرآن مثل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » (٤) حيث يفهمها البعض من ظاهر اللفظ بما يقلل من اهمية

---

(١) الفصل في الملل والاهواء والنحل/٤/١٧١
(٢) ابوبكر الجصاص/احكام القرآن/٢/٥٩٢
(٣) فتاوى ابن تيمية/٤/١٨١
(٤) المائدة/١٠٥

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . والحقيقة ان الالفاظ التى تحتويها الآية تحتاج الى تأمل . حيث يجد المتأمل أن عدم ضر ضلال الاخرين مرتبط بأن يكون الشخص مهتديا . وهو لا يكون مهتديا الا اذا أصلح نفسه . وسعى لاصلاح غيره والذي يترك السعي لذلك فانه جائر عن قصد السبيل مهما كان صالحا متورعا . وهذا التأمل وهذه الاشارة هي روح الكتاب والسنة .(١)

بل الآية في الأمر بالمعروف كما ورد في مسند الامام احمد حيث ذكر قول ابي بكر الصديق في خطبة له : أيها الناس انكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة والله ما انزل الله في كتابه أشد منها : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب .

وفي رواية اخرى : سمعت رسول الله يقول : ان الناس اذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك ان يعمهم الله بعقابه . (٢)

وما كان اهتمام العلماء واجماعهم الا صدى لاهتمام القرآن والسنة بهذه المسئولية فقد جعلها الرسول الكريم في أحاديث عديدة قرينة اسس الاسلام . كما اعتبرها مقياسا للحكم على الافراد في خيريتهم ورسالتهم . ونورد بعض هذه الاحاديث :

١ روت درة بنت أبي لهب انه قام رجل الى النبى ﷺ . وهو على

---

(١) لامر بالمعروف والنهي عن المنكر,٢٨

(٢) رواه احمد ورواه الترمذي وابن ماجه

المنبر فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير؟ فقال ﷺ خير الناس أقرأهم وأتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم (١)

٢ وروى ابوهريرة عن النبي ﷺ قال : الاسلام ان تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على اهلك فمن انتقص شيئا منهن فهو سهم من الاسلام يدعه ومن تركهن كلهن فقد ولى الاسلام ظهره . (٢)

٣ - وروى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ انه قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » (٣)

٤ - وعن حذيفة عن النبي ﷺ انه قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله ان يبعث عليكم عذابا منه فتدعون فلا يستجاب لكم » (٤)

٥ - وعن جابر انه قال : قال رسول الله ﷺ : اوحى الله عز وجل الى جبريل عليه السلام ان اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها فقال : يارب ان فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين ، قال : فقال اقلبها عليه وعليهم ، فان وجهه لم يتمعر في ساعة قط (٥)

---

(١) رواه احمد في مسنده/٦ ٤٣٢

(٢) رواه الحاكم ٢١/١

(٣) رواه احمد والترمذي

(٤) رواه الترمذي

(٥) رواه لبيهقي في شعب الايمان

ومن هذا كله يفهم أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق لتحقيق رسالة الانسان في هذه الارض حيث يصلح نفسه . ويسعى الى اصلاح غيره . ويبلغ نور دعوته للعالمين . ويتحمل في سبيلها وفي الحفاظ عليها ما يجعله خليفة ينقل الدين من جيل الى جيل خلفا عن خلف . وبذلك تتحقق امانته ورعايته لها ويتحقق معنى العبادة الذي يستلزم المعرفة والطاعة . وذلك لا يكون الا فيما أمر الله ونهى ، على أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزمان اعدادا خاصا . وتهيئة لهذه المهمة .

فيستلزمان بدء الايمان بهما عن قناعة ويقين . لان هذا الاعتقاد يحمل صاحبه على التضحية في سبيل انفاذ مهمته . وبخاصة اذا كان يدرك انها مهمة لها شأنها فهى اصلاح للنفس أولا ثم اصلاح للغير بعد ذلك واصرار في كلتا الحالتين على الوصول الى الهدف فلا تردد ولا سماع للمثبطين . ولا استكثار لما يبذل في هذا الطريق من جهد أو مال بل وحتى النفس تبذل رخيصة في سبيل الله .

ويستلزمان كذلك - وبناء على ما سبق - معرفة بالشرع والحلال والحرام . والدعوة وطرقها ومناهج الدعاة . وضرورة هذا كله ان الجسم المظلم لا يشع وفاقد الشيء لا يعطيه ولا يتصور ان يكلف انسان بالدعوة الى شيء هو لا يعرف حقيقته ولا خصائصه . ولا اسراره ففي هذا التكليف تخط لمقتضيات الامور ومعاكسة ومناقضة لطبائع الاشياء .

اذاً فمعرفة الاسلام والوقوف على خصائص تشريعه أمر ضروري لمعرفة المعروف وتحديد المنكر . لاننا لا نحسن بعقولنا ولا نقبح بها . ولكنا نقف عند حدود الامر والنهي كما ورد بهما الكتاب والسنة .

وليس في هذا التكليف عنت أو ارهاق بالنسبة لعوام الناس لان مهمتهم في هذا الصدد تتحدد بقدر معرفتهم دون تقصير منهم أو تجاهل للواجب في هذا الصدد وهم بهذا القدر يدعون الى الخير بسلوكهم وبما يستطيعون من فهم وتبليغ .

ويستلزمان بصيرة مستنيرة بالحق ، وبصرا واعيا به ، لان الدعوة طريق الى حق ، والطرق الى الحق يكتنفها اعداء الحق ، فلابد من معرفة مسارب الطريق وعقباته ، وان يكون هناك تصور لكيفية التغلب على هذه العقبات ، ولهذا ما له من ضرورة التعليم لبعض العلوم والمعارف .

والانسان المتحمل لهذه المسئولية يدرك تبعتها في ان خسارة عدم نجاحها تعود عليه قبل ان تعود على غيره ، ولو تصورنا ان هذا الاحساس خالط سلوك كل فرد من بنى الانسان لكان لنا ان نتصور عالما ناعما بالخير بعيدا عن الشرور التى تملأ علينا حياتنا ونعاني منها .

كذلك فان هذه المسئولية مع صعوبتها هي قدر الانسان لانه انسان .

ونحن لم نتعمق بحث كل المسائل التى تتصل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لانها ليست من خطتنا ، ويكفينا هنا الاستدلال على صحة ما نذهب اليه مما هو من صميم بحثنا مسئولية الانسان . فالذي يهمنا هو أن نقرر ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مسئولية الامة المسلمة . وهو ميدان ايجابية الفرد المسلم وهو بهذا يعتبر العمل الذي يمثل نشر الدين والحفاظ عليه . قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وهو مسئولية

الانسان ومناط تكريمه . وانحراف انسان ما عن الاسلام الذي هو دين الانبياء جميعا يضيره هو ولا يضير معنى المسئولية . وسيجيء كلام في هذا ان شاء الله .

« ليست الدعوة الى الدين بعمل بسيط كل البساطة ولكنها مع افتقارها الى الوعظ والنصح والتذكير والتنبيه حينا . تتطلب عرض الدين بأسلوب علمي خالص . وتقريره بالحجج والبراهين . حينا آخر ، وهذا النوع العلمي الاستدلالي من خدمة الدين هو احد وجوه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل عامة الجهود المبذولة في سبيل الدعوة الى الدين ، ومن مقتضيات الطبيعة اللازمة ان يدعي الناس الى دين الله وينهوا عن الشرك والكفر والتكذيب بالرسالة ومخالفة الشريعة »(١)

اجل هو صلب رسالة الانسان – ولا انسان الا المسلم – يتحملها كل قدر طاقته ويؤدي دوره وفق قدراته ، دون نكوص ، أو خيانة للامانة .

وبعد .. فلعل كل ما ذكرنا من ألفاظ المسئولية المتعلقة بالانسان يؤدي معنى متقاربا ان لم يكن متحدا . فالخلافة تعنى القضاء بالعدل والدين جيلا بعد جيل . والعبادة تعنى كل جهد مبذول من اجل الله وطاعته فيما أمر ونهى حتى ولو كان في ميدان عمارة الحياة والامانة تعنى الدين والفروض والتكاليف . والامر بالمعروف والنهي عن المنكر يعنى تجميع كل هذه المهام في أمرين اثنين هما جماع الخلافة والامانة وحق العبادة . وهما اصلاح النفس واصلاح الغير وفق ما أمر الله ونهى . ولعله وضح الآن – ما سبق ان اشرنا اليه – ان الانسان هو الكائن المكلف المسئول .

(١) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر/٨٤ ، ٨٥

العتاب للانسان مسئولية

من واقع مسئولية الانسان عن فهم الدين واقامته ونشره تجيء آيات تعتب على الانسان كفرانه بالنعم ، وعدم ايمانه بالله واليوم الآخر. وهذا العتاب يحمل في طياته ان الانسان مسئول وان ما منحه الله اياه من النعم ومظاهر التكريم ، انما هي مقتضى من مقتضيات المسئولية ، وليست ممنوحة لذاتها ، اذ لو كانت كذلك . لما كان للعتاب عليها واللوم على تجاهلها نفس المعنى الذي تعطيه حين يكون العتاب لمخلوق مسئول كلفه الله فأعانه وهيأ له ميسرات التنفيذ فاذا بعد هذا ولم يع المقصود من التكريم ونسى ذاته فانه جدير باللوم . ولنأخذ مثلا قوله تعالى :

« أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون » (١)

وقد نزلت هذه الآيات في كافر – اختلف في شخصه – جاء الى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك الى النار » . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهي تنطبق على كل من خان الامانة ، فلم يؤمن بالدين ومنه البعث والثواب والعقاب ..

---

(١) يس ٧٧ ٨٠

يقول ابن كثير : « والالف واللام في قوله تعالى (أولم ير الانسان) للجنس يعم كل منكر لبعث . (انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين) أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الاعادة . فان الله ابتدأ خلق الانسان من سلالة من ماء مهين . فخلقه من شيئ حقير ضعيف مهين . كما قال عز وجل (الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم) وقال تعالى (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) أي من نطفة من اخلاط متفرقة . فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على اعادته بعد موته . كما قال الامام احمد في مسنده حدثنا ابو المغيرة حدثنا جرير حدثني عبد الرحمن بن ميسرة . عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال ان رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها اصبعه ثم قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى بني آدم اني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللارض منك وئيد . فجمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت أتصدق واني أوان الصدقة ؟ » .. ولهذا قال تعالى « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » أي استبعد اعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والارض للاجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه وان الله تعالى خلقه من العدم الى الوجود فعلم من نفسه ما هو اعظم مما استبعده وانكره وجحده . ولهذا قال عز وجل « قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (١)

ولان التذكير للانسان بخلقه أمر ملموس له ومشاهد وفيه من التكريم ما فيه وجدنا اللوم لهذا الانسان الذي ينكر البعث وبه يخون

(١) تفسير ابن كثير ٤ ٤٧٢

الامانة ينصب على هذا التذكير، رعاية من القرآن لمنهجه في عرض الحقائق مبسطة ميسرة ليس فيها تعقيد قضايا المنطق ولا مقدمات الاستدلال العقلي أو الفلسفي، ولكنه يذكر من يخون الامانة بما يشير الى قدرة الله من جهة والى تفضله عليه من جهة اخرى، وقد كان احرى بالانسان كمخلوق مسئول الا يغتر بتكريم الله له، فيكفر. بل كان الواجب ان يكون غير ذلك من شكر وحمد وطاعة وفي ذلك رعاية للامانة وتحقيق لمناط التكريم الالهي للانسان.

«قتل الانسان ما اكفره. من أي شيءٍ خلقه. من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره. ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره كلا لما يقضي ما أمره. فلينظر الانسان الى طعامه. انا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الارض شقا. فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولانعامكم»(١)

والذم الموجه للانسان الذي ينكر البعث يجيءُ في صيغة لائمة قوية، تحتمل الدعاء عليه باللعنة، وتحمل التعجب من صنيع هذا الانسان الذي يستبعد البعث وهو اعادة، وينسى مراحل خلقه وخلق السموات والارض وهي بدء وانشاء، ويسير السياق القرآني ليلفت نظر هذا المكذب من بني الانسان فيعدد له النعم الظاهرة في خلقه ورعايته وكلها تنطق بقدرة الموجد من العدم على البعث والنشور ثم يذكره القرآن بالرعاية التى توفر للانسان ما يحتاجه من طعام على اختلاف اصنافه وفنونه وما يصلح له ولانعامه ويحقق المتاع واشباع الحاجة.

---

١) سورة عبس/١٧ ٣٢

واسناد الافعال في التذكير بالطعام الى الذات العلية أمر له دلالته ولفت لنظر الانسان ليعيد حساباته في مسألة تشككه في البعث والنشور لان في هذا انكار لقدرة القادر وقد تبينت للانسان في خلقه وطعامه وشرابه وهي أظهر الاشياء بالنسبة له . (١)

ولان الاولى بهذا الانسان – كما اشرنا – ان يعي هذه الدروس وان يفهم من هذا التكريم مسئوليته . جاء اللوم والعتاب للانسان في مواطن عديدة من القرآن وحمل فيها الاوصاف المتضادة مرة يقترب من الملائكة . ومرة يقترب من الشيطان . ولا يكون هذا الوصف الا لمخلوق مسئول مكلف والا فما الداعي للوم مخلوق خلق هكذا ولا يتحمل مسئولية ولم ينط به دور ؟!!

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين . وانّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » (٢)

ويروى أن عمر بن الخطاب حين سمع من يقرأ « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » قال غره والله جهله .

، وقوله تعالى (الذي خلقك فسواك فعدلك) أي ما غرك بالرب الكريم (الذي خلقك فسواك فعدلك) أي جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبا في أحسن الهيئات والاشكال .. وقوله تعالى (في

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ٤٧٢

(٢) سورة الانفطار/٦ ١٢

أي صورة ما شاء ركبك) قال مجاهد : في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم . وقال ابن جرير حدثني محمد بن سنان القراري حدثنا مظهر بن الهيثم حدثنا موسى بن علي بن رباح حدثني ابي عن جدي ان النبي ﷺ قال له : « أولد لك ؟ » قال يا رسول الله : ما عسى ان يولد لي اما غلام واما جارية . قال « فمن يشبه » قال يا رسول الله من عسى ان يشبه اما أباه وأما أمه فقال النبي ﷺ عندها « صه لا تقولن هكذا ان النطفة اذا استقرت في الرحم احضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم . أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى « في أي صورة ما شاء ركبك » قال شكلك .. وقوله تعالى « كلا بل تكذبون بالدين » أي انما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب . وقوله تعالى « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » أي وان عليكم للملائكة حفظة كراما . فلا تقابلوهم بالقبائح فانهم يكتبون عليكم جميع اعمالكم »(١)

والتذكير بالكتبة الحافظين يعني والله اعلم بمراده — اعادة الانسان الى الصواب حيث يخيل له شيطانه ان اعماله هذه ومنها التكذيب بالبعث لا ترصد ، ولا يحاسب عليها . فيذكره الله سبحانه ان له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، وان هذا الانسان ما يلفظ من قول الا ويسجله عليه الرقيب والعتيد . وحين يكون أمر الانسان كذلك ومبعثه التكذيب بيوم البعث وهو صلب الامانة . لان من صفات الاله المعبود كما جاء على لسان سيدنا ابراهيم الخليل « والذي يميتني ثم يحيين والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين »(٢) وهنا يكون التذكير بالخلق من العدم وما يوحي به من

---

(١) تفسير ابن كثير/٤/٤٨١ . ٤٨٢
(٢) الشعراء/٨١ . ٨٢

قدرة على الاعادة بعد الموت .

« ان كل نفس لما عليها حافظ . فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فماله من قوة ولا ناصر » (١)

« فلينظر الانسان مم خلق » تنبيه للانسان على ضعف اصله الذي خلق منه . وارشاد له الى الاعتراف بالمعاد . وان من قدر على البداءة فهو قادر على الاعادة بطريق الاولى كما قال سبحانه « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٢) والآيات في هذا الصدد كثيرة وما ذكرناه مجرد امثلة يتضح من خلالها ان الانسان - كما حددته آيات الامانة والمسئولية - هو المخلوق المكلف المسئول . ومسئوليته تتحدد بحفظه لدين واقامته ثم نشره خلفا بعد خلف الى كل بقاع وزمان . وحين يكفر بركن من اركان هذا الدين كالايمان باليوم الآخر — وقد كان ولا يزال أبرز ركن يكفر به بعد انكار الالوهية — فمعناه انه كفر بالامانة التي حملها وتحملها . وهنا ينطبق عليه وصف الظلوم الجهول . لانه جهل خلقه أو تجاهله . وجهل النعم التي يرفل فيها . والتسخير الذي هيأ الله له به الحياة . جهل كل هذا وأهمها الخلق سواء لنفسه أو لسموات والارضين وما فيهن من مؤشرات القدرة ودلالات الفضل والعظمة الالهية وحين يجهل هذا فهو ظلوم . بالغ في ظلم نفسه حين رد على كرم الكريم بالعصيان والجحود .

---

(١) الطارق ٤ - ١٠

(٢) ابن كثير ٤ ٤٩٨

من أجل هذا تأتي آيات العتاب لتذكره بما جهل وتعيده الى الصواب حتى لا يظلم نفسه ويعرضها لغضب الله بسبب هذا الكفران الذي يعيش فيه . وهذا العتاب كما أفهم لمس لمسئولية الانسان وتذكير بها وليس حكم عليه بالعقاب أو العذاب الاليم في الدنيا . أو الآخرة أو فيهما معا .

وعليه فان الانسان المسئول هو ذلك المخلوق الذي يتميز عن غيره بما كرمه الله به ومسئوليته حقيقية ، وهي حقيقة تفرد القرآن ببيانها وتخبطت العلوم حين حاولت بيانها لانها لم تنطلق من منطلق قرآني في دقته وشموله . واذا كانت هذه هي حقيقة مسئولية الانسان . فما صلتها بالتكريم اذاً ؟

الفصل الرابع

حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم

الصلة بين التكريم والمسئولية

اقتضت حكمة الله سبحانه ان يخلق مخلوقاته لغاية في هذا الكون وشملت هذه الحكمة خلق الانسان المكلف المسئول كما حددت هذا آيات منها قوله تعالى :

« أيحسب الانسان ان يترك سدى »(١)

وقوله سبحانه : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (٢)

كما اقتضى عدل الله سبحانه الا يكلف نفسا الا وسعها . ومن خلال هذين الاصلين حكمة الله سبحانه وعدله ننظر الى الصلة بين تكريم هذا الانسان وبين مسئوليته .

لقد وصف القرآن الانسان بانه المخلوق المكلف المسئول . وحددت هذه المسئولية آيات كريمات هي قوله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٣) .

---

(١) قيامة ٣٦
(٢) مؤمنون ١١٥
(٣) لاحزاب ٧٢

وقوله سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما تعلمون »(١)

وقوله سبحانه : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »(٢)

وقوله سبحانه : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٣)

ويكاد يجمع المفسرون لهذه الآيات على أن المقصود منها هو فروض هذا الدين اقامته والمحافظة عليه . وحمله خلفا عن خلف ، وجيلا بعد جيل .

واذا كانت المسئولية بهذا المعنى هي دور الانسان فانه ولا شك دور صعب يقتضى قوة في البدن واستقامة ، كما يقتضى رجاحة في العقل . وحرية في الاختيار كذلك فانه يقتضى أن تساعد الحياة هذا المخلوق في مهمته حتى لا يجتمع عليه همان . صعوبة مسئوليته ، ومعاكسة الحياة له . ومن هنا لزم الانسان كذلك هداية الرسل . فصعوبة هذه المهمة اقتضت وفق عدل الله « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ان يعان عليها الانسان وقد اعانه الله عليها واعده لها بما نفهمه على انه مظاهر تكريم الله للانسان ، وهي تكريم – ولا شك غير انه ليس مقصودا لذاته ولكنه اعداد وتهيئة للدور المنوط بهذا الكائن المسئول .

---

(١) البقرة/٣٠
(٢) الذاريات/٥٦
(٣) آل عمران/١١٠

ونشير هنا مجرد اشارات الى مظاهر التكريم هذه حتى يتسنى لنا فهم الصلة التي أشرنا اليها .

١ التكريم في الخلق والتسوية :

انظر قوله تعالى « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » (١)

وقوله سبحانه : « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » (٢)

وقوله سبحانه : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة سجدوا لآدم » (٣)

وقد اجمع المفسرون على ان الخلق الحسن والتسوية يعنيان اعتدالا في القامة وقوة في الجسم وتكاملا . وهذا كله لازم لدور الانسان . وقد اثبت البحث العلمي قدرة الجسم على التكيف . واحتواءه لخاصية التكامل .

٢ تكريم الله للانسان بالعقل :

يقول سبحانه : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » (٤)

وذكر الامام القرطبي في تفسير هذه الآية آراء المفسرين في عموم

---

(١) الانفطار ٧
(٢) التين ٤
(٣) الاعراف ١١
(٤) الاسراء ٧٠

التكريم ثم قرر أن المعول عليه العقل لان به يفهم الكتاب ، وتدار الامور . فاذا اضفنا الى هذا كله فواصل الآيات المنتهية بـ« لعلكم تعقلون » « لعلكم تذكرون » وما شابهها ادركنا ان الله أعان الانسان على دوره بالعقل وهو لازم لدوره لان نشر الدين يقتضي فهمه ومعرفة اصوله وهذا يكون باعمال العقل .

ومن فضل الله ان يثبت العلم ان اعمال العقل لا يكلف الجسم مثلما يكلفه حمله لعدد من الجرامات فوق كتفه . وكأن الله أعد العقل ليعمل لا ليجمد .

٣ تكريم الله للانسان بالحرية والاختيار :

وهذه خاصية يستلزمها التكليف بالمسئولية ، ولا يتصور ان تصدر الاوامر والنواهي لمن لا يملك اختيار هذه أو تلك . ونشير هنا الى قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) وقوله سبحانه : « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القي معاذيره »(٢) وقوله سبحانه : « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه »(٣)

٤ تهيئة الحياة للانسان :

بعد أن هيأ الله الانسان للحياة بالجسم والعقل والحرية ، هيأ الله الحياة له حتى قال الراغب الأصفهاني ان كل شيئ مخلوق في هذا العالم انما هو من اجل الانسان . (٤) وآيات التسخير عديدة نذكر منها قوله تعالى :

---

(١) الرعد/١١

(٢) القيامة/١٤ ـ ١٥

(٣) النساء/١٦١

(٤) الراغب الاصفهاني/الذريعة الى مكارم الشريعة/١٦

« **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** » (١) وقوله سبحانه : « **الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** » (٢) والماء والطعام وغيرهما مما حوته آيات القرآن في مواضع عديدة منه .

٥ ارسال الرسل :

ولصعوبة مهمة الانسان لم يتركه الله سبحانه يتعامل مع هذا الكون بعقله هو ولا باختياره وهواه ولكنه سبحانه رشد هذا التعامل بان ارسل الرسل ومعهم الهدى والكتب : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣)

« **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** » (٤)

ومما سبق يتضح ان التكليف جاء متوافقا مع الاعداد له . ووهب الله الانسان ما يناسب وظيفته (الخلافة والعبادة وحمل امانة الدعوة) بلا نقص ولا زيادة . وهناك من الامور ما لا يحتاج اليه الانسان في وظيفته . لذا لم يمنحه الله من الطاقات أو لم يطلب منه . أن يلج هذا المجال . اما لصعوبته وتحديه قدراته وقد اراد الله ذلك واما لانها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة كذلك .

من هذه المسائل مسألة كنه الذات الالهية ومسألة الروح وعلم الساعة وما شابه هذه من مسائل حظرت على الانسان . ولم يزود

---

(١) ابراهيم ٣٣
(٢) الجاثية ١٢
(٣) لاسراء ١٥
(٤) النساء ١٦٥

بطاقات لها . ولم يطلب منه دخول مجالها لما سبق ذكره من اسباب . (١)

على ان حرمان الانسان من مثل هذه الطاقات لا ينقصه ولا يجعله حيوانا ككل الحيوانات اذ من الواضح ان الآيات التى قصر القول فيها على خلق جسد الانسان لم تخل مما يوحي الى المخلوق المسئول ان اطوار خلقه السوي اعداد لما هو اشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب . (٢)

واحتواء البناء الانساني لطاقات كالنفس والعقل والروح مع اختلاف طبائعها فيما بينها ثم تيسير ادائها لمهماتها دون تناقض أو اضطراب . كل هذا يؤكد أن هذا الاعداد انما هو طريق للتكليف لا محالة . وان التكليف هو محك جدارة الانسان بهذا التكريم أو قضائه على نفسه بالهبوط عن سمو ارادة الله له .

« ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الانسانية وعمل كل منها في القيام بالتكليف . وتميز الانسان بمنزلة الكائن المسئول . (٣)

اذن نستطيع القول بان الصلة بين التكريم والمسئولية هي صلة الاسباب بالنتائج فالتكريم سبب ظاهري للتكليف . وبدونه يصبح التكليف موضع نظر من منطلق عدل الله ورحمته وعدم التكليف لا يتصور مادام الله قد خلق الانسان في أحسن تقويم . وسخر له الكون

---

(١) خصائص التصور الاسلامي/٧٨
(٢) الانسان في القرآن/٧٨
(٣) سـ ق/٢٤٩

وارسل له الرسل ، واذن فهي المشيئة العليا تريد ان تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الارض . وتطلق يده فيها . وتكل اليه ابراز مشيئة الخالق في الابداع والتكوين . والتحليل والتركيب .. واذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات كفاء ما في هذه الارض من قوى وطاقات وكنوز وخامات . ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الالهيه (١)

كيف يحقق الانسان انسانيته

يصاب الانسان بالحيرة ويغشاه الدوار . حين ينظر الى نفسه من زاوية واحدة فانه اذا نظر الى انه مخلوق مميز مكرم . تاه وطغى . وضل وعربد وفي حالات الافاقة يصيبه الدوار لانه مع هذا الذي يفعل لا يشعر بالراحة ولا ينعم بالامان .

وكذلك اذا نظر الى التبعات التى عليه دون ان يفطن الى انه معان عليها يصيبه الدوار من ثقل ما عليه .

ولا تكون هذه الحيرة الا لمن اعرض عن ذكر الله وعرض نفسه للضنك الذي يعنى ضيقا في الصدر وان أكل الانسان ما أكل وشرب ما شرب . وسكن ما سكن : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا (٢)

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ٦٧,١ طبعة دار الشروق
(٢) طه ١٢٣ . ١٢٤

لكن الانسان المسلم لا يرى في التكريم مبعثا على الغرور والانتشاء بل ينظر اليه على انه نعمة خلقت لتؤدي دورا هو شكرها ، وشكر المنعم عليها . فعنده ان التكريم طريق المسئولية وهي شرف للانسان ، تتحقق انسانيته بها وبالايجابية فيها .

والمسلم يدرك انه مسئول عن البشرية لانه فهم من معنى الخلافة والعبادة والامانة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم من كل هذا مسئوليته العامة ووجد صدق فهمه هذا في قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عيكم شهيدا »(١) وقوله تعالى : «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢) .

ويتجمع لدى المسلم ايمان عميق بدوره هذا وايجابيته كما يستشعر قيمة الايمان بالمثل العليا لانها جزء من تحقيق الانسان ذاته ، وبغيرها يهوى الى حضيض الحيوانية ويؤمن كذلك بأن العبودية لله القاضية بكل هذا الدور هي أشرف تقييم وتقدير له ، وأن رعاية الله له تكون بقدر فهمه لهذه الحقيقة وتنفيذه لها . ومن هنا يحقق المسلم ذاته ويجد انسانيته . ان اراد ذلك .

وايجابية المسلم تنطلق من عقيدته ، فيشعر بانه قوة فاعلة في ذات نفسه ثم في الكون كله ذلك ان الايمان عنده مرتبط بالعمل كما يعلم من

---

(١) البقرة/١٤٣
(٢) آل عمران/١١٠

آي القرآن وأحاديث الرسول « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله – ثم لم يرتابوا – وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون » (١)

« والعصر ان الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢)

فايمانه عملي لا يعرف السلبية ولا اجترار المفاخر . بل عليه ان يؤدي دوره . يؤديه مع نفسه فيطابق بين عقيدته وسلوكه وهذا من مقتضيات الامانة والطاعة والخلافة .. ويؤديه مع غيره حين يدعوهم الى النور الذي احس . يدعوهم لينجوا من عذاب الله وليكون قد أدى حق الاسلام عليه . ويدعوهم ليعيشهم في الخير الذي يعيش فيه . لانه يعلم ان البشر اخوة . وان تبعة ضلال الناس – اذا ضلوا – انما تقع على عاتقه هو . ما لم يبين لهم بعد ان عرف هو وتبين . وهي تبعية ثقيلة تؤرق ضميره . وتثقل بكاهله . لكنها تبعة الرسل وهو مستخلف عن الرسل في حمل الدين الى العالمين .

وهو يقوم بهذا الدور لانه يدرك انه مستخلف ليبلغ الدين وينشر الحق والخير وانه معان على هذا بما أودع الله فيه من اسرار وعرفه من نواميس الكون لان الخلافة في الارض والقيادة للبشر طرف من المنهج الالهي للخلاص . انه طريق أشق ولكنه هو الذي يحقق انسانية الانسان أي يحقق انتصار النفحة العلوية في كيانه . وهذا هو

---

(١) حجرات ١٥

(٢) سوره لعصر

الانطلاق . انطلاق الروح الى مصدرها الالهي وتحقيق حقيقتها العلوية وهي العمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم(١) وشعوره هذا يدفعه الى العمل ويخرجه من دائرة السبية البغيضة اذ يعلم أن قدر الله ينفذ فيه والارض من حوله . عن طريق حركته هو ذاته . وهو لا يعلم هذا فقط . بل يحيل عمه هذا الى عمل دائب لانقاذ البشرية التى تعاني اليوم من عدم فهم الانسان لمسئوليته في هذه الحياة « وتصور المسلم للامر على هذا النحو لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه . كما يرفع من اهتمامه بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه . وبثقل العبء الذي يحمله ويكدح فيه حتى يلاقي الله ربه . وقد أدى الامانة وأدى الشهادة . ووفي بحق النعمة فيما يملك من الطاقة وطمع في النجاة من عذاب الله . وزحزح عن النار »(٢)

لكن .. هل ما يريد المسلم ان يقدمه لبشرية شيء له قيمة في عالم المادة والماديين؟ اجل له قيمة يدركها الماديون الآن اكثر من غيرهم لانهم يفتقدون الامن والطمأنينة ومؤشرات الانتحار والطلاق والتشرد تؤكد هذا وهم يتشوقون الى منقذ يقدم لهم هذا الذي يفتقدون . فان لم يعتقدوه دينا . فحسب المسلم انه قدم لهم العلاج . وهو محق من منطلقه هو لانه ينظر اليهم بعين الرأفة ويدعو لهم بالهدى . لانهم مستعبدون يرسفون في أغلال . يحتاجون الى جهاد لتحريرهم منها .

والمسلمون اليوم لا يقدمون لغيرهم علما ولا حضارة ولكنهم يقدمون لهم ما يسمى بتحرير الانسان أو ميلاده من جديد لان عالم اليوم كيوم

---

(١) في ظلال القرآن مجلد السادس تفسير سورة الاخلاص ٤٠٠٤

(٢) خصائص التصور الاسلامي ٢٧٢ ٢٧٣

قال ربعي بن عامر رسول جيش المسلمين الى رستم قائد الفرس « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الاديان الى عدل الاسلام »

والمسلمون وهم يملكون هذا . يستطيعون تحرير الانسان . ليصنع حضارة غير قائمة على استعباد احد لأحد أو استعباد آلة لانسان . (١)

ومن هنا يكون ايمان المسلم بالقيم العليا . لانها تخالط النفس الانسانية السوية . ولانها ارتفاع بالانسان عن حضيض الحيوانية البغيضة ومن اجلها جاء الرسل ونهض المصلحون فالانسان انسان بشرط ان يراعي ما به صار كذلك واذا لم يدرك الانسان هذه المعاني صار كالحيوان بل أضل . وصار كما قال الله عنه « ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » فبين ان الذين كفروا لم يستعملوا القوة التي جعلها الله تعالى لهم هم شر الدواب . وقال « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء » (٢)

هكذا يكون الانسان الكافر وان ملك كل حضارة الدنيا مادة وارقاما وعددا وعتادا .

أما المسلم فيدرك ان عبوديته لله شرف وكرامة وان معنى العبادة الواسع الشامل يقتضيه ان ينظر الى الناس بعين العطف وتحمل المسئولية عنهم وهو بذلك يحقق انسانيته .

---

(١) السابق ٣٣٨

(٢) الذريعة ١٦ . الانسان بين المادية والاسلام ٢٨٣

فالانسانية لا تتحقق بالفخر والتيه ، ولا بالمادة والعمران الدنيوي لكنها تتحقق بمقدار النجاح في الدور الذي حددته له آيات المسئولية من اقامة العدل والعبادة بمعناها الشامل والامانة التي هي الدين كله ، وتبليغه للناس لانقاذهم مما هم فيه ، وتحريرهم من عبودية غير الله (١) .

من هنا حق للاستاذ سيد قطب (٢) أن يصف هذه المهمة التي تحقق للانسان ذاته بقوله « على أن المهمة التي أناط الله بها الامة المسلمة . ليست هي مجرد هداية الناس الى الخير الذي جاء به الاسلام وحماية العقيدة الاسلامية واصحابها انها اكبر من ذلك واشمل .. انها كذلك حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعا واستبعاد عنصر القوة المادية من ميدان الاعتقاد والعقيدة ، وحماية الضعفاء من الناس من عسف الاقوياء ودفع الظلم ايا كان موقعه وأيا كان الواقع عليه . وكفالة القسط والعدل للبشرية كافة ، ومقاومة الشر والفساد في الارض بحكم الوصاية الرشيدة التي اناطها الله بهذه الامة اذ يقول « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣)

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٤) .

---

(١) قد اكتفينا بالاشارة الى بيان حقيقة الانسان وهي المسئولية وكيف ينفذ حقيقته لان التفصيل هنا يستلزم الحديث عن وسائل استخدام التكريم الالهي في القيام بالمسئولية وهي في نظرنا العلم ، والعمل والوقت وهذه موضوعات تحتاج الى بحوث مستقلة فضلا عن انها عولجت ولو بطريقة جزئية في بحوث اخرى .

(٢) سيد قطب/نحو مجتمع اسلامي .

(٣) آل عمران/١١٠

(٤) البقرة/١٤٣

ونجيب على السؤال المطروح

لعله وضح من خلال ما سبق في باب المسئولية ان الانسان يحمل ميزة أو مسئولية هي سبب تكريمه كل هذا التكريم . وهذه الميزة ليست تسبيح الانسان وتحميده . لان هذه يشاركه فيها كل مخلوقات الله . كما تخبر آيات مثل قوله تعالى « سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم » (١) وقوله سبحانه : « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٢)

وقد قالت الملائكة لله سبحانه حين أخبرهم بخلق الانسان « اني جاعل في الارض خليفة قالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ومعناه ان الملائكة لم يعتبروا التسبيح سببا لخلق هذا الانسان لانهم يقومون بهذه المهمة ولا يعصون الله ما أمرهم . عكس الانسان الذي يفسد ويسفك الدماء .

وليست هذه الميزة هي الطاعة لله عز وجل . اذ الطاعة في عمومها مركوزة في جبلة مخلوقات الله . ما يعقل منها وما لا يعقل « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين » (٣)

وحين عرضت الامانة على السموات والارض والجبال ابين ان يحملنها وهي ترتبط بالثواب والعقاب وقلن لله سبحانه نحن نطيع أمرك ونمتثل لمشيئتك .

---

(١) أول سورة حشر
(٢) الاسراء ٤٤
(٣) فصلت ١١

أما الميزة التي تميز بها هذا الانسان وكرم من اجلها كل هذا التكريم فهي الخلافة التي تعني تنفيذ عدل الله ومنهجه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل . وهي العبادة بمعنى الخلافة وشمولها لكل نشاط انساني من اجل الدين ونشره وهي الامانة التي تعني الدين كله بما يستلزمه هذا المعنى من الحفاظ عليه وتبليغه جيلا بعد جيل ، وترجم كل هذا في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بعبارة اخرى ميزة الانسان على كل الكائنات أنه المخلوق الوحيد الذي ينقل الدين من جيل الى جيل ولهذا أثره في استمرار الدين وخاتمية هذه الرسالة .

وما اظننا اضفنا جديدا هنا غير الذي فهم من تسلسل المباحث السابقة . لكنا نريد أن نذكر والذكرى تنفع المؤمنين ، بأن مخلوقات الله كثيرة تؤدي ادوار يؤديها الانسان . غير انه يتميز على كل هذه المخلوقات بميزة حفظه للدين وجهاده من اجله . وهذه الميزة كما اشرنا هي مقياس انسانيته ، فبقدر نجاحه فيها يكون تحقيقه لانسانيته ، وبقدر اخفاقه أو تجاهله لهذه الميزة يكون هويه وهبوطه الى درك أقل بكثير مما ميزه الله من اجله .

ولا يظن ظان ان تلك ميزة تعني كسبا . بل هي ميزة تعني تبعة وهما دائما فليست أمور الحفاظ على هذا الدين ونشره بين الناس لانه رحمة للعالمين ليست شيئا آليا يضغط على زره فيتحقق للانسان ما يشاء ولكنها حسابات تحتاج الى بنية قوية وعقل رشيد وارادة حازمة وجو مهيأ لهذه الدعوة ودستور ينهل منه الانسان ويرجع اليه حين يواجه المشكلة في ممارسة عمله هذا .

وكل هذا الذي يحتاجه هذا العمل قد كرم الله به الانسان واعده له كيلا يكون له على الله حجة ، أعني أن هذا الذي ظنه الناس مزية

وتكريما في ذات الانسان والكون ليس لذات الانسان بل هو من مقتضيات عمل يتحقق من خلال التكريم الحقيقي للانسان .

وعليه فاننا ننظر الى الانسان والمسلم هو الانسان – على انه مسئول أولا . وقد جاء تكريم الله له لانه مسئول عن شيء هو صميم رسالة الرسل والانبياء وبهذه الميزة استحق ان يعنى القرآن بالحديث عن خلقه . وتسخير الكون له . وان يحشد له من الطاقات والامكانات ما ييسر له القيام بمسئوليته التى ميزته ورفعته مكانا عليا .

فلا غرابة ان يكرم الله مخلوقا يتحمل مثلما تحمل الانسان . ولا حق للانسان ان ينظر الى دوره كمخلوق مكرم سخرت له الاشياء . دون ان يعيد الفهم الى صوابه فيفهم أن دوره هو أنه مسئول وان فضل الله وعدله اقتضيا تيسيره لدوره وتيسير دوره له . ذلك ان قلب الفهم والتغنى بالميزات فقط أمر ينقص من قدر الانسان ويحيله الى آلة أو حيوان أو أي شيء غير الانسان الذي تحدث عنه القرآن . اما الفهم الصحيح فمردوده في أبسط صورة عطاء مستمر للسمو بالحياة والاخذ بيد الاحياء . فضلا عن اخوته من بنى الانسان .

فهل ننطلق منها ونتحمل مسئولياتنا التزاما وحفاظا على الدين من اعدائه وتبليغه للناس نقيا كيوم جاء به رسول الله الى العالمين ؟

لابد من ذلك ومن الاخذ باسبابه والمثابرة عليها لننعم بالحياة الدنيا حيث نؤدي دورنا وتلك سعادة ما بعدها سعادة . ثم ننعم بماوعد الله به المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم .. وهذه هي حقيقة الانسان كما تصورها القرآن .

تتمة ضرورية

قد يدرك القاريئ لسطورنا التى مرت اننا نتحدث عن الانسان من حيث هو انسان ولكنا نقدم التصور الاسلامي ونستدل بتوجيه القرآن . وهنا قد يخطر على بال هذا القاريئ شبهة – كسحابة صيف مؤداها ان الانسان ليس هو الفرد المسلم فقط . فماذا عن غير المسلم من بنى الانسان ؟ ودون تعرض لطبيعة هذا الفهم نفترض انه صحيح وقد قصد به بيان وجه الحق فنقول وبالله التوفيق :

اولا : نحن ننطلق في مسلكنا هذا من حقيقة ان المفترض في الانسان الذي ميزه الله بالعقل ان يكون مسلما لان الاسلام هو الامانة وهو العبادة وهو الخلافة وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقرآن يقرر هذا بقوله « ان الدين عند الله الاسلام » (١) وقوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٢) وقد ذكر القرآن أن عقيدة جميع الانبياء قبل محمد ﷺ كانوا مسلمين . وان الشرع (التوحيد) الذي جاء به الاسلام هو الشرع الذي حمله الانبياء قبل رسولنا لقول الله سبحانه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٣) .

ثانيا : نؤمن ان الرسل قبل الاسلام بينوا للناس حقيقة دور الانسان .وعرفوهم بالههم تعريفا صحيحا ولكن الانحرافات التى اصابت الناس لظروف كثيرة هي التى اضلت البشرية وأصبح ضرورة

---

(١) آل عمران/١٩

(٢) آل عمران ٨٥

(٣) الشورى ١٣

لانقاذها ان يرسل رسولا يذكر بما ضاع من اذهان الناس ويقدم التصور الحقيقي لله والكون والانسان(١) . ولعلنا نذكر بما اشرنا اليه قبل من أن من أهل الكتاب من من بالله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ووصفه الله بانه من الصالحين.

وان بني اسرائيل حين دخل عليهم النقص جاءهم من انهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه كما سبقت الاشارة الى ذلك .

«كان اهل الكتاب في عهد نزول القرآن قد تسرب اليهم فساد وخيم عليهم ضلال وقد حادوا عن الصراط المستقيم وتركوا دين الله الحق . ولكن لم تزل طائفة منهم قائمة على سبيل الحق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فاثنى عليها القرآن مما يدل على أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الشروط اللازمة للقيام على سبيل الحق (٢)

اذن فتقديمنا التصور الاسلامي هو محاولة لتقديم الصواب متسامين بذلك على واقع الانسان الذي انحرف لنأخذ بيده الى هذا السمو الذي اراده الله له .

ثالثا : اما احتكامنا الى القرآن فهذا ما نراه الصواب . لانه اذا تقرر انه يحوي كل هدى سبقه وانه كتاب الدين الذي هو عند الله هو الدين وان القوم قبله عرفوا من انبيائهم الهدى لكنهم ضلوا وانحرفوا . اذا تقرر كل هذا فليس بمقبول لدى العقل نفسه ان نترك المصدر الوثيق

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ٣٧

(٢) لامر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧

ونلجأ لنأخذ تصوراتنا عن الانسان من بقايا كتب اصابها ما اصابها أو من تصورات بشر ، حاولوا فهم الانسان فكان ما وضع بين يديكم في أول البحث من اعترافهم هم بالقصور الذي يداني الفشل .

اذن من الحق ان نلجأ الى القرآن ونقيم عليه تصوراتنا لا أن نذهب اليه لنحكم عليه بتصورات سابقة وثقافات اصابها ما اصابها من انحراف وضلال .

رابعا : ان هؤلاء الافراد او الدول من جنس الانسان الذين لا يعملون عقولهم ولا يجدون هديا في كل ما ذكرنا هم حكموا على انفسهم بضرورة اخراجهم من جنس الانسان وهم بهذا خسروا الدنيا لعدم اعتبارهم ، والاخرة لانهم حطب جهنم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (١) . وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » (٢) هؤلاء لا حساب لهم الا واجب انتشالهم مما هم فيه (٣) .

وشبهة أخرى

على أن شبهة أخرى قد تعرض للذهن نتيجة لتركيزنا على الدور الدعوي للانسان المسئول ، ونتيجة لاهدار انسانية الماديين الذين لا

---

(١) الاعراف/١٧٩

(٢) سورة محمد/١٢

(٣) الذريعة/١٨ د . فتحي عثمان/الاخلاق لاسلامية . والاخلاق الوضعية/محاضرة القيت في كلية الشريعة جامعة الامام

يستغلون طاقاتهم فيما خلقت له كما حكى القرآن الكريم . أقول نتيجة لهذين قد يثور في الذهن سؤال . وهل يحرم الانسان الاستمتاع بمنجزات العلم الحضاريه اذا هو تفرغ لدوره الدعوة الى الدين ؟ أو يحرم السباق في مجالها وتحقيق امجاد علمية ان صح التعبير؟

ودون الخوض في مناقشة طبيعة السؤال قوة أو ضعفا نقول وبالله التوفيق :

اولا : نحن نقدم الانسان المسئول من خلال التصور الاسلامي وتصور الاسلام لاهمية العلم بعامة دون ان يقصره على فرع دون فرع ما دام كل ذلك لخدمة الحقيقة وقضية الانسان أمر جلي يجب ان ينظر اليه كجزئية بنائية من جزئيات التصور الاسلامي وهنا ليس مجال بسط القول فيه لكن حسبنا ان نذكر بأن أول آية نزلت في القرآن كانت « اقرأ باسم ربك الذي خلق ... علم الانسان ما لم يعلم »(١)

ويقول سبحانه « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٢)

« يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » (٣)

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (٤)

هذه الآيات ونظائرها وفواصل غيرها مما يحمل معنى التذكر والتدبر

---

(١) سورة العلق
(٢) لزمر/٩
(٣) المجادلة/١١
(٤) فاطر ٢٨

والنظر كل هذا يظهر الموقف المبدئي للاسلام من قضية العلم تعلما وتعليما .(١)

ثانيا : بناء على ما سبق يتقرر خطأ من يزعم ان بين الايمان وبين العلم تناقضا ، أو بين الايمان بالروحانيات والدعوة وقضاياها . وبين العلم تضاربا وصراعا ، لان الايمان بالقيم العليا لا يمنع العلم ان يتقدم ويصل كل يوم الى اكتشاف جديد « وقد كان العلم الوحيد على ظهر الارض في فترة من فترات التاريخ هو ما يعرفه الشرق الاسلامي في الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات ولن يمنع كذلك من استخدام الطائرة أو الصاروخ الجوي ، ومن احتلال القمر والمريخ ، ولكنه سيجعل لكل هذا غاية انسانية نبيلة ترتفع على النفع المادي القريب » (٢)

ثالثا : واذا تبين هذا فان ما يحرص عليه الاسلام هو الا يهان الانسان والا يسقط نفسه من عداد الانسانية دون ان يشعر ، وذلك ما وقعت فيه بعض المذاهب البشرية حين حصرت الانسان في مطالب الغذاء والكساء والمسكن والاشباع الجنسي . والاسلام لا يرفض هذه وكل مطالب الجسد ، ولكنه لا يعتبرها غاية الوجود الانساني لان حصر الانسان في نطاق هذه الاشياء هبوط شائن وانحدار به من علياء الانسان الى حظيرة الحيوان .

وقد تنبه الى هذا الامر بعض الباحثين المنصفين من ابناء الغرب

---

(١) الاحياء للغزالي/٢٧/١ ، عمر عودة الخطيب/لمحات في الثقافة الاسلامية/٢٢٢ الطبعة الثالثة ١٩٧٩ الرسالة بيروت

(٢) الانسان بين المادية والاسلام/٢٨٦

« يجب ان نحرر الانسان من الكونيات التى خلقها علماء الطبيعة والفلك .. تلك الكونيات التى حبس فيها الانسان منذ عصر النهضة اذ على الرغم من ضخامتها الهائلة فان عالم المده اضيق من ان يتسع للانسان » (١)

رابعا : قد يخدع الانسان بالمظهر المادي لحضارة غير المؤمنين . فيظن انها السعادة التى يبحث عنها وانها نتاج العقل الذي يستخدم أمثل استخدام . وللوهلة الاولى قد يبدو هذا صحيحا في شكله لكن اكتناه الامر يظهر حقيقته فالغرب المادي يعاني من ضياع روحي تحمله مؤشرات التشرد والبطالة والانتحار والطلاق وغير هذا كما تدل عليه الاحصائيات الرسمية . كذلك فانهم يعانون من اضطراب عقلي ومن معاناة لامراض عصبية وهذه شهادة واحد منهم (٢) وليس من المسلمين الامر الذي يجعلنا نلمس صدق قانون الله في الاسعاد الذي هو « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقي ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا » وقد اشرت الى معنى الضنك وهو الا يشعر الانسان بالراحة والرضا وان ملك كل شيء مادي في الحياة .

ولعل هذا هو الذي جعل صاحب (سقوط الحضارة) يقول : « ان انسان الغرب كان ميالا دائما الى التأكيد على طاقاته العقلية . وهذا هو السر في تقدمه الهائل ولكنه في الوقت نفسه سر تدهوره . فهو يفقد القوة الروحية المفهوم الحيوي الذي يحتفظ للنوع البشري ببقائه . وبدون هذا المفهوم الحيوي فان كلمة التقدم تصبح مجرد سخرية . بل انها لتشبه سيارة لا وقود فيها »(٣) .

---

(١) الانسان ذلك المجهول/٣٥٧ . الانسان بين المدنية والاسلام ٧٣

(٢) هو جسيس كاريل في الانسان ذلك المجهول ص ٣٤

(٣) كولن ولسن/سقوط الحضارة ١٦٨ . بين العلم والدين د. عماد السامرائي بحث في كلية الشريعة بالرياض ١٣٩٩هـ

الخاتمة

ولعلني لأول مرة اشعر ان الخاتمة لا تعني نهاية العمل الذي أقدمه بل استشعر أنها بداية ونواة لاعمال تتصل بموضوع بحثنا هذا ، اذ بعد ان تبين لنا أن حقيقة الانسان هي مسئوليته وانه انما كرمه الله لاجلها أصبح مطلبا منهجيا أن يكون هناك بحث مستقل عن وسائل تحقيق هذه الحقيقة في ضوء رسالة الانسان وظروف عصرنا بما فيه ومن فيه .

كما أتصور ان الاشارات التى المحنا اليها عن تصور علوم الانسان للانسان تحتاج الى بحث مستقل في مجال هذه العلوم كتقييم لجهود علمائها ، اقترابا وابتعادا من الحقيقة القرآنية بخاصة ، ومن مصادر الحقيقة الاسلامية بعامة .

هذا وغيره مما توحيه قراءة هذا الجهد المتواضع أعتبره بدايةً لعمل وليس خاتمة لبحث ، وارجو الا اكون واهما في أن هذه العجالة مهمتها الحقيقية عندي انها تفجر قضايا وتثير علامات استفهام ، تتكامل الاجابة عليها لتكون ما نحن بحاجة اليه من بيان حكم الاسلام في تحركنا وسكوننا .

وبالنسبة للمادة المطروحة في هذا البحث لابد من ملاحظة ما يلي :

أولا : حين جعلت لعلوم الانسان فصلا خاصا بمحاولاتها كنت اقصد الى هذا قصدا ولكنى وجدتنى حين المعالجة مضطراً الى بيان بعض الاحكام الاسلامية في مجال التعريف ومجال بيان طبيعة الانسان وذلك ليتضح الفرق ، وتظهر الحاجة المنهجية فضلا عن الواقعية الى ضرورة الاخذ من الاسلام للحكم به على افكار البشر – وان اتسعت شهرتهم – وليس العكس ، فالاسلام حاكم لا محكوم .

ثانيا : تقديمنا التكريم على المسئولية وبحثنا في حقيقته بحثا ينطلق ليثبت غير ذلك مسوغ ومقبول لانا أردنا أن نسير مع القارئ من نقطة بدء هي معلومة لديه والبدء بها يجعله يؤكد ما عنده ويتذكره جيدا من تكريم الله للانسان فاذا نحن جئنا بعد هذا لنحدد حقيقة الانسان في القرآن بالمسئولية كان على ذكر لكليهما وتسهل المقارنة والنظر ، وهنا لا تكثر له الاحالات حتى لا تشتته ولا تضيع جهده ، وهمنا الاول قرار الحقيقة في عقله وقلبه ووجدانه .

ثالثا : كان منهج الاختيار للنماذج هو طابع هذا البحث ، سواء في مجال علوم الانسان كامثلة تفيد دلالة فيما نقصد اليه ، ام في مجال اختيار النصوص القرآنية للاستشهاد بها على ما نذهب اليه ونفهمه من خلالها ، وهنا نقرر انه بالنسبة للعلوم كان هناك مسوغ للاختيار هو أن علمي النفس والاخلاق ابرز ما يهتم بالانسان في الجانب النظري – مع ملاحظة التجريب في علم النفس – وان اظهر العلوم الطبيعية في هذا الصدد هي علوم الحياة ووظائف الاعضاء .

لكن بالنسبة للقرآن كنا نتخير من الآيات ما يدل على نقطتنا وفي ذهننا ان هناك من الآيات في هذا المعنى الكثير والكثير وحسبنا ما استدللنا به وقد اشرنا احيانا الى بعض غيره من الآيات فليس عندنا اساس للمفاضلة بين آية وآية في نقطة واحدة . وان وجد بينهما من الفروق في الدلالات في مجالات اخرى .

رابعا : في الحديث عن الانسان المكرم ذكرنا ابرز مظاهر التكريم التي تمثل اطرا عامة تحتوي غيرها مما لم نذكر ، وللتفصيل كما قلت مكان آخر .

خامسا : الحديث عن المسئولية باب متعدد المداخل ويتصل بكثير من ميادين الدراسة ولكننا هنا -كما اشرنا- عنينا المسئولية العامة الكبيرة ، المسئولية عن الالتزام بهذا الدين ، والحفاظ عليه من المشوهين والمحرفين ، ثم نشره لكل الاجيال في كل زمان ومكان ، وهي مسئولية أم تلد كل المسئوليات التى تشغل العلوم بها من اخلاق أو قانون أو غير هذا واشارتنا الى صعوبتها ليس للتنفير ولا للتهديد ولكن حفزا للهمم وايقاظا للعقول ، وتنبيها على انها رسالة يجب أن توجه لها كل الطاقات ، وتوجيه الطاقات لها -بالتصور الاسلامي- يحقق للانسان -أي انسان- ما يحلم به في دنياه ، ثم يحظى برضا ربه ونعيمه في الآخرة ان كان من المؤمنين وان كان من غير المؤمنين فحسب المؤمن انه يضع في رأس هذا علامة استفهام قد تجره بعد حين الى تفهم حقيقة ما هو عليه من زيغ واضطراب وهنا تكون مسئوليتنا نحن المسلمين عن كل هؤلاء الحيارى المضيعين .

سادسا : لعل هذا البحث الموجز يرد ولو بالاشارة على الماديين والعقلانيين ومصنفي البشر الذين يبذلون همهم في تقطيع أوصال الكيان الانساني ، جزئية هنا وجزئية هناك كي يظلوا الهداة في نظر الحيارى المضللين ، ولكن صحوة الاسلام في أهله سوف تسد على هؤلاء منافذهم لتنقذ هؤلاء الحيارى من عبادة هؤلاء وافكارهم الى عبادة الله الواحد القهار .

وبعد :

فاني اسأل الله ان أكون قد وفقت في وضع الانسان موضعه اللائق وأن أكون قد أوضحت له حقيقته التى وضحها القرآن كي يشمر عن ساعد الجد ويتحرك لا يلوي على شيءٍ ميمما وجهه شطر دوره ورسالته ليشعر أنه انسان على وجه الحقيقة .

فان أكن قد اصبت ما استهدفته فتلك منة من الله ونعمة نحمده عليها ونسأله نعمة شكرها ، وان تكن الأخرى فحسبي اني اجتهدت واسأل الله الاجر واطمع في أن يكملني ويجعلني اهلا للأجرين والله المستعان .